

الحمزة
فتى عبد المطلب

عبد الزهراء الصغير

دار المرتضى

الحمزة

فتى عبد المطلب


بسم الله الرحمن الرحیم

عبد الزهراء الصغير

الحمزة
فتى عبد المطلب

دار المرتضى
بيروت

دار المرتضى

طباعة ,نشر ,توزيع

لبنان -بيروت , ص.ب :١٥٥/٢٥ الغبيري

هاتف فاكس : ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

E-mail: mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing -Publishing -Distributing
Lebanon -Beirut
P O Box: 155/25 Ghobiery
Tel -Fax: 009611840392
E -mail: mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

الطبعـة الثـالثـة

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

الإهداء

إلى المنقذ الأعظم ، ومحرر الإنسانية النبي محمد (ص) .

سيدي أبا القاسم

أقدم لروحك المقدسة وخلقك الفياض باقة من أخلاق عمك العظيم ، وأخيك المنافح الذي افتخر بأخاك ، وقائدك المحنك الذي غامر بنفسه وزجها في لهواة الحرب محامياً عنك ومناضلاً دونك .

أقدم لك حياة فتى عبد المطلب البطل (حمزة) خاشعاً إلى روحك إذ لم أجد ولن أجد أحداً أولى بها منك والسلام عليك وعلى عمك وأخيك وقائدك - الحمزة - ورحمة الله وبركاته .

عبد الزهراء الصغير

تمهيد

إن للعرب القدامى - وخاصة ما قبل الإسلام - نواميس وعادات تمسكوا بها ما لم يتمسك بها أحد سواهم وذلك كالجود والأباء والشهامة والنخوة والعزة وما إلى ذلك

فلو عرفت أمة من الأمم بعض هذه السجايا فبواسطة العرب ، وبفضل الهجرتين الهاشميتين واختلاط الأمم بهم وبث العرب هذه الدروس التي تكفل للعالم السعادة والإطمئنان

أخذت بعض العناصر بعض ما يحمل العربي من عاداته وشمائله إلا أن العربي لم يتكهرب بدرانة خلق ما سواه ؛ ورطانة لسانه ، فقد فضل أن يبقى محتفظاً بكرامته معتزاً بالفطرة التي فطر عليها ونشأ فيها

فلست تجد عربياً في أي وطن عارياً متجرداً عن تلك

الخلال مهما عاش ويعيش ؟ وكيف والتربة والمناخ يساعدانه على تلك فلا تنبت الجزيرة العربية ـ وهي جرداء عارية عن الزرع والكلاء ـ أي زرع ما سوى هذه المجموعة العربية التي مثلت أدوار الإنسانية الصادقة طيلة حياتها عارضة على شاشة الوجود هذه الصفات والسجايا التي خلد بها أبناء الضاد وأحفاد قحطان .

وهل هناك نبات ألذ وأطيب ثمراً من هذا النبات الذي عرف معنى الإنسانية وواجباتها فسار على ضوء هداها وتعامى عن كل ما يشوهها ويشينها

فالعربي لم يعرف الخب والخداع والافك والبهتان والتلون في قوله والتبلبل في آرائه ؛ ولم يعرف غير الصدق والأمانة والنخوة والبطولة

ها وقد تجمعت كل هذه الأعراض اللازمة في قبيل قريش وأورثتها هاشماً ؛ ولكنه خلفها إرثاً لابنه عبد المطلب وعبد المطلب قد أودعها نفس فتاة ـ الحمزة ـ فها أنا ذا أحوم بأن أقص عليك حياة هذه الشخصية الفذة لتطل عليك روحه بعد ألف وثلاثة مائة وست وستين عاماً فإليك أيها الصديق المحبوب أقص هذه الحياة .

لحمزة شخصية فذة وسؤدد عظيم وحسب وضاء ، ومآثر جليلة ومواقف طيبة لا ينكرها التاريخ ولا يمحيها الزمن بل

سجلها على جبينه غرراً نـاصعة تتحـلى بها القـرون وتتقرط بهـا الأعـوام وذلك مما دعـاني أن أجمـع لتلك الشخصيـة مـآثـرهـا وحسبهـا ومـا تحلت بـه تلك النفس الجبـارة والقلب الـطمـوح حسب ما استطيع جمعه وأسأله التوفيق والإعانة على ذلك .

بمنه وفضله

الحمد لله الذي أوجد الأشياء من العدم إلى حيز الوجود واستعينه بحوله وطوله وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

(الذكر الحكيم)

الحمزة فتى عبد المطلب

نسبه يرى العرب أنهم أشرف العالم حسباً ونسباً لعزلتهم وعدم اختلاطهم بالعجمات التي لا يعرف الفرد من أفرادها من نسبه سوى النسبة إلى المدينة التي عاش فيها وتربي في أحضانها ؛ فلا يستطيع أحد غير العربي تعداد بعض آبائه وأجداده كما يستطيعه ابن الصحراء الذي شب على معرفة نسبه وقبيلته ، فيظل ينازع العرب ويفاخرهم لشرفه التليد الذي تلقاه عن أجداده

ولكن هذا العربي المعتد بنفسه وآبائه ومالهم من مآثر خالدة مهما بلغ منه الإعتداد والإعتزاز لا بد وأن يعترف لقريش بعلو منزلتها وسمو شرفها

ثم قريش هذه التي اعترفت لها البطون والقبائل العربية لا تلبث إلا وأن تتنازل إلى ساداتها وأمرائها من بني هاشم معترفة

لهم بما هم فيه من شرف باذخ ونسب وضاح لا يتطاول عليهم متطاول ولا يرقى كرقيهم أحد

ولا بد أن تتنازل بنو هاشم عن عظمتهم وسلطانهم معترفين لعبد المطلب بالسيادة وعلو مكانته فيهم

والحمزة بن عبد[١] المطلب حفيد هاشم أبي السادة الغر الميامين أن افتخر فإنما يفتخر على جميع القبائل وحتى على هاشم نفسها لأنه وارث تاجها وشرفها فحقاً إذ أتاه بالعجب على جميع العرب بشرفه ونسبه ؟ وكيف لا يكون كذلك وحمزة بن عبد المطلب بن هاشم[٢] بن عبد مناف[٣] بن قصى[٤] بن كلاب مرة بن لوي بن غالب بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة بن مدركة[٥] بن الياس بن مضر بن

---

(١) عبد المطلب واسمه شيبة واشتهر بهذا الإسم للرواية التي أثبتتها نصوص التاريخ

(٢) وهو عمرو وعرف بهاشم وذلك لما أصاب مكة قحط شديد ومجاعة فأخذ عمرو ينحر لهم الإبل ويهشم لهم الخبز ويقدمه للطاوين من أهل مكة فسمي هاشم لهشمه الثريد وعدل عن عمرو فأصبح لا يعرف إلا به

(٣) واسمه المغيرة

(٤) واسمه زيد

(٥) واسمه عامر

نزار بن معد بن عدنان .

وهنـا يجمل بنـا أن نقف ولا نتعدى في نسبـه إلى مـا فـوق عـدنان لا لغمـوض هـذا النسب الـوضـاح بـل امتثـالاً لقـول النبي (ص) .

(إذا وصـل نسبي إلى عدنـان فقفـوا ولا تتجـاوزوا)[٦] ونسب حمزة نسب النبي طبعاً .

---

(٦) روي ابن عباس انه لما بلغ نسبه إلى عدنان قـال (ص) (كذب النسابون) وكررها مرتين أو ثلاثاً ولا أعلم سبباً لذلك إلا أن يكون النسابة من العرب خبطوا خبط عشواء في نسبه إلى ما قبل عدنان فـلما أحب النبي أن تتلاعب السنة النسابين المخطئين في تعـداد آبائـه إلى آدم ويدلنا على ذلك رواية عروة بن الزبير انه قال (ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسماعيل) .
وروى ابن عبـاس عن النبي (ص) انـه قـال (بـين عـدنـان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون)
وهذا ما حدى بالنبي أن يوصل نسبه إلى جده الأعلى عدنان فأمـر أن لا يتجاوز النسابة إلى أبعد من ذلك ؛ ولما رأى اضطراب النسابة في نسبه واختلافهم فيـه أمر أن لا تتجـاوز النسابـة إلى أبعد من عـدنان ليقفوا الموقف الصحيح الذي تسالمت عليه جميع علماء الأنساب

أبواه :

إن من نظر في تاريخ البيت الهاشمي نظر الباحث المحقق الذي لا يجنح ولا يرضخ لاتجاهات العاطفة والنفس .

يعرف ما لذلك البيت من شمائل ومآثر اتصف بها دون ما سواه من بيوت الجزيرة العربية وما حوته من قبائل عريقة في الشرف ضنينة على حفظ عاداتها المؤهلة لها في السمو والتحليق في سماء العزة والكرامة ولعرف أنه بيت مجبول على حب الخير ، بعيد عن الشر شأنه الرفق والصلاح يحب لقومه وآله ما يحب لنفسه من فعل الخير .

ولعرف أنه بيت قد خدم الإنسانية بكل ما استطاع أن ينفق من جهود وإنفاق مال وتضحية . ولا سيما في الجزيرة العربية

فهذا هاشم وقد ملأ الدنيا ذكره وعطر أجواءها بشذى خلقه الكريم ونفسه السامية التي حلقت في سماء الفضيلة بعد أن ترفعت عما يحمل البشر المأفون من خب وخداع ومكر وأحقاد .

وها هي ذي ذكرياته تمر علينا ونشاهدها صوراً جليلة مشرقة لامعة فلا بد وأن نذكره بخير وتشكره عليها الأجيال الآتية كما شكرته الحقب الفائنة والأجيال البائدة وسيبقى مجده

وشرفه مسطورين بأحرف ذهبية إلى آخر نفس من أنفاس الحياة بالرغم من منافسة شرذمة شريرة أرادت أن تكور شرفه ؛ وتحطم مجده وتبوء بالفضائل والمكرمات التي تحلى بها وطبعت عليها نفسه .

واني يتسنى لهم ذلك مهما حالفوا وتجمهروا ومهما بذلوا الدرهم والدينار وعدلوا عن الخطة التي نشأوا عليها والفوها حتى نمت عليها نفوسهم وانطبعت عليها طباعهم فلم يستطيعوا أن يظهروا للناس غير ما هم عليه من سقوط في الأخلاق وضعة في النفسيات فما زالت نفسية هاشم تزداد جلاءً وتظهر وضوحاً بين قومه وأمته وحتى في الأمم المجاورة لدار إمارته التي تربى في تربتها وخدم أبناءها ؟ وكيف يخفى القمر وما هي إلا سحابة صيف سرعان ما تبددها الرياح وتذيبها حرارة الشمس فتتلاشى نفوس أبناء عمه الأمويين إن صح نسب العمومة ـ الذي اضمروا له السوء واشعلوا أرواحهم وأذابوا أفئدتهم من شدة الغيظ والحنق عليه حينما يشاهدون شرفه واسمه يتعاليان ويرددان في كل محفل من محافلهم وفي كل أمة يتجهون لها ويأمونها في مشتاهم والمصيف .

فلم يتنازل هاشم عن عرش مجده وكرسي عزه لا لحبه للأمرة والسطوة وخفق النعال من خلفه وهي أمنية جميع مخلوق

ولكنه لم يجد بني أمية أكفاءً لأدارة الحكم مخلصين لخدمة الوطن وعلم العروبة أن كانوا عرباً اصحاءً ، بل أنه يعرف نفوسهم المنطوية على الظلم والخيانة وقلة المروءة وكل هذه الخلال غير محبوبة لدى العرب وليست مرضية في الزعيم الذي يحاول أن يدير دفة الحكم .

فلا يتسنى لهاشم أن يدع العرب العوبة بيد الأمويين أذلاء بائسين يعانون مآسي بني أمية ويرزحون تحت نير استعمارهم الثقيل وسلطتهم الهوجاء .

كيف يقبل ذلك وهو يرى العرب أذلاء بائسين وقد اكتنفتهم الأمم المجاورة لهم وقد توسعوا في الملك والسلطة والثقافة والتجارة فلا بد أن يلحق العربي البدوي بهؤلاء المتحضرين حتى يضم إلى شرف نسبه شرف الملك والتجارة والعلم والثقافة ، فإن ضمير هاشم الحنون وعطفه الذي تمركز في قلبه يأبيان ذلك ، فأخذ على نفسه أن لا يتنازل عن مقامه الذي شرفه الله به مهما تفاقم الخطب وتعالت الزعقات . وتكاثرت الجماهير المتحالفة ما دام في قيد الحياة وحيز الوجود حتى يرفع كيان أمته ويجدد مجدها لكي تأخذ حصتها من النبل والسعادة .

كان بإمكان هاشم أن يعيش عيشة الأمراء بغير امارة وزعامة لما قد حصل على كمية وافرة من الشرف النفسي والطيب الذاتي والخلال الحميدة .

ولكنه أبى إلا أن يوصل طرف حياته بأولها عـزيزاً محـترماً مـرجواً غير مرتجي ، حتى إذا دنت منه الوفاة وتقلص ظل حياته خلف إرثـاً باديـاً لا ولادة وأشبالـه الأربعـة فسـاروا عـلى نهج هـاشم واتبعوا خطاه ومن بين هذه الأشبال ولده عبد المطلب فلم يزل يعده بمكة يعدان نزح من اخـواله وهـو صبي لم يبلغ الحلم وقد ظهر فضله وشرفه في (أم القرى) واجتازت شهرته حدودهـا تناقل ذكره رواد مكة وتردد اسمه حداة الحجيج يـطعم ويسقى بعـد أن تسلم الرفـادة والسقايـة من عمـه (المـطلب حتى أمـر بحفر (زمزم) لرؤيا تكررت عليه في منامه وهـاتف يحثه عـلى حفرها ولم يوضح له موضعهـا ؛ فقد جـاءه وهو غـاط في نومـه وقال له : احفر طيبة(*) .

عبد المطلب : وما طيبة .

فـاعرض عنـه الهاتف وذهب ولم يـد لله على مكـانها ولما أن جاء اليوم الثاني وقد استسلم عبد المطلب لقـوة النوم وسلطانـه عاوده ذلك الهاتف وقال : أحفر بره .

عبد المطلب : وما بره .

فلما جاءت الليلة الثالثة حتى أسـرع عبد المـطلب لمضجعة وأطبق جفنيه مراوداً للنوم عسى أن يأتيه صاحبـه ؛ فما هي إلا لمحات حتى غرق في لجة النوم وقـد لمح شبـح صاحبـه فقال :

(*) انظر طبقات بن سعد طبع ليدن

احفر المضمونة .

عبد المطلب وهو في شوق وإنفعال : وما المضمونة أوضح ذلك فما أسرع أن توارى عنه خلف ستار من الأحلام وهكذا بقي عبد المطلب يترقب الليلة الرابعة وقد ذهبت به الهواجس والأفكار مذهبها وأحاطت به الهموم كما يحوط بياض العين بسوادها فألقى نفسه مفكر بأمر صاحبه وشأنه وأوامره التي لم يعرب عنها ويفصح بها ، فغلبته سنة النوم واستولى عليه سلطانه فاعترضه صاحبه قائلاً : احفر زمزم .

عبد المطلب : وما زمزم ؟

الهاتف : لا تنزح ولا تذم تسقى الحجيج الأعظم ما بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم[1] فهي شرب لك ولولدك من بعدك .

انتبه عبد المطلب من نومه وقد بدت عليه علائم الفرح والمسرة مرتقباً فجره سائماً طول ليلته حتى إذا بزغ الفجر ونشرت أخت يوشع أشعتها على الأفق أخذ معوله بيده ومعه ولده الحارث يحمل مسحاته ومكتله ؛ وليس له يومئذ ولد سواه ؛ فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحات

(١) الأعصم ما كان في رقبته أو في رجليه بياض وفي سائر بدنه سواد وكان غراب يعيش على الدماء والفرث في ذلك الموضع .

ويضع في المكتل والحارث يحمل التراب ويلقيه خارج الموضع

حفر عبد المطلب ثلاثة أيام حتى ظهر الطوى فكبر وقال هذا طوى إسماعيل فعرفت قريش أن عبد المطلب قد أدرك الماء فحدثت الخصومة والنزاع ثم عادوا فاشلين مقرين لسيدهم بالفضل والكرامة

وكان عبد المطلب(٢) أحسن قريش وجهاً وأصبحها ، وأمدها جسماً وأكثرها حلماً وأنداها كفاً بعيداً عن كل موبقة وجريمة تفسد الرجال ولم تؤخذ عليه مرة واحدة طيلة ما عاش أنه فسد أو فسق وكان مهاباً لم يره ملك إلا أكرمه وشفعه ودونك ما أثبتته كتب التاريخ في عام الفيل وما حدث منه مع أبرهة فلا حجة لنا بذكره بعد ما أثبتته كتب التاريخ

وقد روى ابن سعد في طبقاته عن هشام بن محمد بن السائب قال حدثني محمد بن عبد الرحمن الأنصاري عن جعفر بن عبد الرحمن المسور عن ابن مخزمة الزهري عن أبيه عن جده قال : كان عبد المطلب إذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير فنزل عليه مرة ومعه ولده عبد الله فوجد

---

(٢) انظر طبقات بن سعد الجزء الأول ليدن

عنده رجلاً من أهل اليمن قد أمهل في العمر وقد قرأ الكتب فقال له يا عبد المطلب تأذن لي أن أفتش مكاناً منك .

عبد المطلب : ليس كل مكان مني آذن لك في تفتيشه ؛

الشيخ : إنما أفتش أنفك .

عبد المطلب : دونك فانظر .

نظر الشيخ إلى عرنين عبد المطلب وإلى الشعر الذي في منخريه فقال أرى نبوة وأرى ملكاً وأرى أحدهما في بني زهرة .

رجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة فولدت له حمزة وزوج ولده عبد الله بآمنة بنت وهب فولدت له النبي (ص) .

وروى ابن سعد عن سند طويل عن عمر بن علي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين قال كانت آمنة بنت وهيب بن عبد مناف في حجر عمها وهيب فمشى إليه عبد المطلب بن هاشم بابنه عبد الله فخطب منه آمنة لولده عبد الله وخطب لنفسه في مجلسه هالة بنت وهيب فزوجه إياها فتزوج عبد المطلب بهالة وابتنى بها عند أهلها فولدت سيداً كريماً بطلاً ذائعاً صيته وهو الحمزة[1] وقد كانت ولادته قبل عام

---

(١) حمزة ومعناه الأسد فهو منقول غير مرتجل نقل من معناه الحقيقي مع لحاظ معنى الاسمية فيه لما توسم فيه من بطولة وشجاعة

الفيل في أربع سنين أو سنتين على الخلاف بين أهل السير والتواريخ وذلك في عام ٥٦٦ أو ٥٦٨ للميلاد .

فهو عم النبي وابن خالته لما بين هالة وآمنة من صلة القرابة وأخوه[٢] فقد رضع والنبي من ثدي ثويبة مولاة أبي لهب وذكر ذلك جل المؤرخين ولا يبعد أن يكون الجمع بين عمر النبي وعمر عمه حمزة سنة وبضعة أشهر حتى يصح أن يقال هذا أخو هذا على حسب الحكم الشرعي في الرضاع المحرم وهو أن يكون اللبن لفحل واحد وفي أثناء الحولين حتى ينشر الحرمة إذ لو كان أكثر من حولين فلا حرمة ولا أخاء والحالة أن النبي التزم بالأخاء وذلك لما أشار عليه أحد الصحابة بزواج فاطمة بنت حمزة قال : كيف يكون ذلك أما علمت أنها حرام علي لأني قد رضعت وحمزة من لبن ثويبة جارية أبي لهب ومن هذا نستطيع أن نحكم حكماً باتاً أن ابن عبد المطلب قد ولد في عام ٥٦٨ وأن النبي قد ولد قبل عام الفيل ببضعة أشهر ليصدق الاخاء .

وقال صاحب ذخائر العقبي محب الدين الطبري وقد تعسف في قوله ويمكن أن نقول أن ثويبة قد أرضعت حمزة وهو

---

(٢) انظر الطبري وابن جرير دائرة المعارف للبستاني والمسعودي في مروجه والبحار للمجلسي .

في آخر سنة الـرضاع وأرضعت محمـداً في أول سنة من رضـاعة وآخـر سنة من رضـاع ابنها مسـروح فيكـون الحمـزة قـد سبق مسروحاً بعامين وقد سبق النبي بأربعة أعوام وهـذا تعسف ولا حاجة إلى مثل هذه التآويل .

أخوته وأخواته

لم يصب عبد المطلب ولداً يسانده ويساعده على إدارة شؤونه ليخفف عنه بعض تلك الأعمال التي كلفته العناء والتعب فقد ناء بحملها وحده غير معتمد على أحد ممن ناوؤه حسداً لعلو منزلته التي هو فيها فقد نذر لله نذرة فأصاب ما رجا ووفى بما نذر فكان عنده ولده الحارث أبان نذرة وسرعان ما استجيب له فرزق الزبير ثم أبا طالب وأسمه عمران أو عبد مناف وبعده العباس وأبا لهب وعبد الله والحمزة وضرار وحجل والمقوم فهؤلاء أخوته من صلب أبيه

وهناك أخوة له من الرضاعة وهم :

النبي محمد . أبو سلمة بن عبد الأسد وهو رضيعه في الحول الأول ومسروح بن ثويبة

أما أخواته فهن :

عاتكة . وصفية وهي التي وقفت عليه يوم أحد ، وأميمة والبيضاء ، وبره ، وأروى

كناه :

أبـو عمارة وهـو ولده الأكبـر وقد قتـل بصفـين تحت رايـة الإمام علي بن أبي طالب .

أبو يعلى وهو ولده الأصغر .

ولم يكن لحمـزة من الذكـور غير يعـلى وعمارة وقـد تركهـما صغيـرين يوم أحـد فكفلهما النبي وكـان يتعـطف عليهـما وكلما رآهما يبكي على أبيهـما وبعد النبي قـام بشؤونهما الإمام عـلي ولم يفـرق بينهما وبـين الحسنين كـما هي شيمته وحـالته وحنـوه على الأيتـام من أبناء المسلمـين فكيف بأيتـام يمتون لـه بنسب قـوي كمثل أبناء عمه حمزة الـذي أرتحل عن الـدنيا وقـد أعرض عن جميع ما ملكت كفاه سوى هذين الولدين وأختهما فاطمة الـذين أقاما في مكة وانتقلا إلى حماية ابن عمهما بعدما أحسا باليتم .

ألقابه :

أسد الله . أسد الرسول . أسد الرحمن وهذه ألقاب لقبه بهـا رسول الله (ص) يـوم بدر . وإليهـا أشار الإمـام علي عليه السلام في كتابه الذي أرسله إلى معاوية إذ يقول أمنا أسد الله وأسـد الرسـول ومنكم أسد الأحـلاف[1] وإذا استشهد منـا

---

(١) يعني الإمام بذلك عتبة عنـد مبارزتـه في يوم بـدر وطلب الاكفاء من قـريش فتقدم حمـزة وعلي وعبيـدة بن الحارث فسأل عتبة حمـزة عن اسمه واسماء أصحابه فقـال حمزة أنـا حمزة أسـد الله وهذا عـلي وهذا عبيدة فقال عتبة وأنا عتبة أسد الأحلاف .

أحد قالوا : سيد شهداء أهل الجنة أو ذو الجناحين(٢)

نشأته

نشأ حمزة بن عبد المطلب في حجر المجد والرياسة ومهد الخلق العربي الكريم والآباء الهاشمي ؛ فحاز على البسالة القرشية ؛ والشرف العدناني والكرم الهاشمي الذي ورثه عن آبائه وأجداده .

شب في دار المنعة والزعامة فما فتح عينيه إلا وجماهير العرب وأشراف قريش مزدحمة على دار أبيه مطأطئة رؤوسهم مصغية لما يقول سيد البطحاء ، ملتفة حوله في البيت العتيق والكعبة المكرمة يلقي عليهم أحاديثه العذبة وتعاليمه الجليلة عن ثغر باسم وصوت جهوري مهيب وبيان عربي تكاد تنسكب ببيانه روحه وتنصب به أريحيته ووداعته في حديثه الشيق ونبراته المتصاعدة التي تشق الفضاء ليهذب قومه ويهدي عشيرته إلى كل خير وفضيلة كما هي عادة الزعيم المخلص في تلك العصور .

لا يفكر بما يفكر به سواه من جمع المال واتخاذه أداة للقوة

(٢) ويريد بذلك جعفر بن أبي طالب وقد قطعت كفاه في غزوة موته فقال النبي قد أبدله الله بجناحين يطير بهما في الجنة فلقب بالطيار وذي الجناحين .

وباباً للسيادة ليحصل على الكبرياء الزائف والتجبر الممقوت كما كان يفعله كل من نافس البيت الهاشمي الجليل .

كل ما كان يهمه ويفكر به هو حالة العرب آنذاك وما هم فيه من فوضى إجتماعية وخلقية واضطراب سياسي واقتصادي فكان بوده جمع كلمتهم ولم شتاتهم على أسس من الأخلاق والمثل العليا التي اكتنفت روحه وأحاطت بها .

فها هو ذا يؤمر بحفر زمزم فينبعث ملبياً إلى ما أمر به ولم يشك السأم والضجر فيستخرج الذهب والسيوف ويعلقها على باب الكعبة ولم تحدثه نفسه السامية وطبعه الكريم أن يستولي على شيء من هذه الكنوز الذهبية لتكون عنده ذخراً إذا اعوزه دهره وازرى به غده .

هذه نفسية عبد المطلب ؛ وقد اقتفى أثره ولده حمزة فورث خلاله وصفاته من خلق سام وعقل راجح جبار وحزم وثبات وبسالة وإقدام وما كاد أن يبلغ العام الثاني عشر أو العاشر حتى فقد أباه عبد المطلب فعاش من بعده غير متأثر أو متحرق بحرارة اليتم ووحشته .

عاش غير معتمد على أحد يكفل حياته ويسهر على تربيته كما يصنع ذلك ببقية الأطفال .

نعم لقد جعل ذلك الفتى الأمير بلاط أبيه ودست أمارته

والحوادث التي تمر عليه ويشاهدها بنفسه وبغيره مدرسة يختبر بها نفسيات قومه فاطلعته على ما في الصدور من غل وأحقاد وحب وإيمان فما بين عدو يود أن يكور عرشه ومحب يسعى لتشييده .

نشأ في كبد الصحراء ولوعاً بالرماية والسباق كما هو شأن كل شاب ينشأ في تلك الربوع وتلك الصحراء ، فلا بد أن يسابق أقرانه ويسعى للفوز والغلبة في كل شيء تعلمه واتقنه ؛ ففاق أهل وطنه وبز أقرانه بحسن الرماية ، فكان لا يخطىء إذا رمى ، ولا يسبق إذا ركب وحينما اشتد صارمه وقويت عضلاته أولع بالصيد كما هو خيم أبناء الترف والسلطة من أرباب المناصب والامارات ؛ ولا سيما من نبت نبات الجزيرة العربية في القرون السالفة بالعز والمناعة والحريات المطلقة التي كانت في الزمن الجاهلي أيام كان العرب معتزين بكيانهم محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ، لم يعرفوا الكذب والتزمت المقيت .

أيام كان العرب تأد بناتها خشية أن يلحقها العار والمكروه .

اعتاد الفتى أن يعتلي صباح كل يوم صهوة جواده ، ويأخذ قسي صيده معه فلا يرجع إلى داره إلا والشمس منحدرة للغروب آذنة بالرحيل ليعطي الراحة لنفسه ولجواده المتعب من

وعثاء صيده ، وليأخذ نصيبه من السمر الممتع والحديث الشهي بين أخدانه وأخوانه حول الكعبة ووسط البيت وليقص عليهم ما لقي في يومه وما شاهد من ظباء في الشعاب وعلى موارد المياهِ وكيف سدد وصوب وسعد وخاب .

ظل فتانا الأمير مولعاً بصيده مطلقاً لنفسه حرياتها ردحاً من الزمن لا يحسب للعيش حسابه ولا يفكر فيما خبأه غده ،

فتراه ناعم الفكر هادىء الضمير ينام ملء عينه لا يرهب ولا يخاف وكيف يمر عليه شبح هذا الخيال الشرود ، ويطرق ذهنه هذا الوهم وهو بين أخوته من آل عبد المطلب وأعمامه من قريش وحلفائهم وهو ابن البطحاء وسادات العرب وأمير قريش إذا قال لم يخلف وإذا وعد لم يخلف ، وإذا سئل لم يمنع يهب ويعطي ولا يسأل أحداً أبداً .

ولا تنس آنذاك أنه في سن الشباب ودور الزهو والخيلاء والحب والطيش وخاصة ما تمركز في نفوس أبناء النعم والأمراء فذاك أكثر فيهم من سواهم . فقد لوى عنان فرسه عن ذلك الدور ، وأطلقه في طلب العز والكرامة والتتبع لمراقي العلياء حتى دعى وهو في ذاك السن إلى حلف الفضول وكان من أعضائه العاملين وله فيه رأي وكلام .

حلف الفضول

كثر السلب والنهب وزال الأمن أو كاد وتطايرت أحبار السوء والدعايات السيئة ، فتهيب الضعيف واشتدت الأزمة على رواد عكاظ ووفاد بيت الله ، فأصبح الرائد غير مأمون على ماله ونفسه وأصبحت مكة مأوى إلى اللصوص وديارا للظالمين فلا مانع ولا زاجر .

وهناك عين ساهرة تراقب الحالة مستنكرة الوضع الشائن والحالة المخزية التي لا تجر عليهم سوى الويلات والإستخفاف بشأن العرب ونقص كرامتهم فراحوا يعملون الفكر ويستوحون العقل عسى أن يهتدوا إلى نهج سوى يخلصهم من هذه الرزايا والمهاوي التي زلت فيها أقدام سكان مكة .

حتى إذا ظلم أخوزبيد وكان من أهل اليمن وذلك أن أتباع سلعة بن العاص بن وائل السهمي فظلمه بالثمن ، وما برح الزبيدي يذكر ظلامته في أبيات من الشعر رفعها إلى بني فهر مردداً ذلك بين الصفا والمروة ووسط البيت .

تعالت أصوات الزبيدي بالنصرة والإستغاثة فغنتها صبايا الحي ورددها شيوخه وشبابه وحنجرته صارخة .

يـا آل فـهـر لمـظلوم بـضـاعـتـه
ببـطن مكـة نـائي الـدار[1] والنـفـر
ومحـرم أشـعـث لم يـقض عـمـرتـه
يـا للرجـال[2] وبـين الحجـر والحجـر
إن الحـرام لمـن تمـت كـرامـتـه
ولا حـرام لـثـوب الـفـاجـر الـغـدر

لم يستطع بنو فهران أن يطبقوا أجفانهم ويسدلوا دون هـذا المستغيث ستار الخيبة ويقروا على الهوان ولم يشاهدوا هوانـاً منذ أن فتحت عينها على سفح هذا الوجود .

هبت بنو فهر ولبت نـداءه وهدأت نفسـه وما خـالطهـا من هلع ورعب فضمنت له رد بضاعته أو الثمن نفسه .

تمشى إستياء هذا الحادث في أندية قريش ونفوس شيوخهـا الـذين سهروا عـلى شرف البيت وكيـانـه من أن تبـاح حـرمتـه ويستخف في رؤاده وتسلب أموالهم وهم سكوت لا ينطقون .

تراجع زعماء قريش وشيـوخها فيـما بينهم وانضم بعض إلى بعض وجاؤوا دور بني فهر ليأخذوا الحيطة من وقوع أمثـال هذه

---

(١) وفي رواية ابن الحديد ج ٣ ص ٤٦٤ نائي الأهل والنفر .

(٢) وكما ذكره أيضـاً يا أهـل فهر وبـين الحجر والحجـر وذكر بيتـاً رابعاً لم يذكره أهل التاريخ غير ابن أبي الحديد ذكره في نهج البلاغة وهو .

هـل مـنـصـف مـن بـني سـهـم فـمـرتجـع
مـا غـيـبـوا أم ضـلال مـال مـعـتـمـر

المخازي التي لم يسبق لها عهد عند أسلافهم الذين ارتحلوا عن وجه الدنيا والفخر ملء أبرادهم والدهر يرتل ويردد باسمائهم فقر رأي زعماء مكة أن يعقدوا حلفاً في دار عبد الله بن جذعان كريم مكة وشيخها الحسن وقد تحالفوا أن يردعوا الظالم وينصروا المظلوم حتى يأخذوا بحقه ولما تم حزبهم وتكاملت رجاله ومن بينهم النبي (ص) والحمزة بن عبد المطلب وللحمزة كلمة تقريع وتوبيخ اثار بها هممهم ونبههم عن سباتهم العميق ، وبعد أن تم الحلف قام الحمزة على قدميه وقال : (ألا فلنذهب من حيننا إلى ابن العاص ونأخذ ظلامة الزبيدي ولا نظلم في مكة قريباً أو بعيداً حراً أو عبداً و لنبدء بما ابتز من ظلامة وافد هذا البيت) .

فقام وقام معه القبائل المتحالفة وهم .

١ ـ قريش وفيهم بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب .
٢ ـ بنو أسد بن عبد العزى .
٣ ـ بنو زهرة .
٤ ـ بنو تميم بن مرة .

وقد عاد الأمن إلى مكة بواسطة حلف الفضول .

وقد ذكر المؤرخون سبب تسميته بالفضول أموراً أقربها إرجاع الفضول إلى أهله وعدم إمكان المبتز من التصرف في الذي ابتزه واستمر هذا الحلف حتى ظهور الدعوة النبوية فاغنت العالم بتعاليمها وأحكامها عن كل حكم ونظام .

وانذر عشيرتك الأقربين

هب محمد غير هياب ولا متماهل داعياً قومه لـلإيمان بـالله والتصـديق بنبوتـه فدعـا بني هاشم وعبـد المـطلب وصنـع لهم طعـاماً في داره ثم ألقى عليهم مـا خوطب بـه مرشـداً منذراً . فبهت القوم وحاروا جواباً وتفرقوا عنه بعد أن تـطاول عليه أبـو لهب بلاذع القول وقارصه غـير فتى كان في داره قـد لبى دعوتـه وآمن بربه وصدقه بما قال وادعى .

ولكنـه لم يتركهم سـادرين بالضـلالة مكبـين على الغـوايـة فدعاهم ثانية وثالثة ولم يصدقه سوى ذلك الفتى الذي أخذ على نفسه أن يناصره ويوآزره عـلى السراء والضـراء ، إذ قال (أنـا أنصـرك على مـا جئت به وأوازرك وأبـايعك) عنـد ذلك قـال النبي محمـد (ص) (أجلس يـا عـلي فـأنت أخي ووصيي وخليفتي من بعدي)[1] .

---

(١) أنظر البخاري : وابن الأثير .

ضحك أبو لهب[٢] ولج في السخرية والإستهزاء بالنبي وقال لأبي طالب (اطع ابنك فقد أمره عليك محمد) .

مرت كلمة أبي لهب على مسمع حمزة وكان واجماً لإبليس ببنت شفه فثارت حرارة الإيمان والغيرة في نفسه فهم أن يبطش بأخيه الأحمق فبقي منتظراً أوامر أبي طالب محدقاً بوجهه يتعرف

---

(٢) أبو لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وكان شديد العداوة للنبي أيام كان عبد المطلب يدنيه ويقربه فكان يحمل في نفسه لهب الغيظ والحقد على محمد وما زال يتحداه بالقول ويتقصد أذاه ويحذر قومه من الإيمان بربه والتصديق بدعوته وكان جاراً للنبي فيأتي بالعذرة والجيف فيضعها على باب دار النبي والنبي لم يفاتحه بذاك وقد يشترك بالأذى مع زوجته أم جميل فكانت تحطب الصريم وتلقيه على طريقه لتوخزه ابر الحطب وهو القائل له يوم دعاهم « تباً لك ألهذا دعوت قومك وعشيرتك » فأنزل الله به وبزوجه السورة : تبت يدا أبي لهب وتب .

وكان أبو لهب بخيلاً خؤناً ورابع الثلاثة الذين سرقوا الغزالتين الذهبيتين الذين وجدهما عبد المطلب ابان حفرة لبئر زمزم واشترط عليهم أن يكون له الربع في ذلك وعند اقتسامهم أخذ العنق والرأس والقرنين الذين في أذني الغزالين .

وهو ممن ساعد قريشاً على حصار بني هاشم بالشعب وفيه أخوته ولم يصلهم بشيء من القوت والمساعدة كما كان يفعل ذلك سواه من العرب مستترين عن قريش كحكيم بن حزام وابن العاص .

وقد توفي في مكة بعد غزوة بدر بثمان ليالي أو سبع بمرض العدسة في السنة الثانية بعد الهجرة .

مـا سيصدر منـه وما سيقـول لأبي لهب على ضحكـه واستهزائـه بالنبي

التفت أبـو طالب إلى أخيـه وقد شـاهد الغضب في وجهـه واشتـد غيظه وكـاد أن ينفجـر بـركـان صـدره فيبـطش بـأخيـه المأفون[1] الذي فقد رشده وصوابه .

خاف وقوع الفتنة بين أخـوته فيثقـل عليه حينـذاك تدارك الخطر والنصرة لمحمد ففرق المجلس وأخـرج أبا لهب ، وبقي هـو وأخوه الأسـد والشرر يتـطاير من قلبيهـما حانقـين عـلى أبي لهب ، فتشاورا بالأمـر وأخذا عـلى نفسيهما أن يسـاعدا محمـداً ويأخذا بيمينه بالرفقَ واللين لا بالقسوة والشدة بين الناس إذ أن التظاهر بالقوة والشـدة يوجب انصـراف النفوس الضعيفـة التي استـولى عليها الجهـل واستحوذ عليهـا الشـرك حتى يحـين يـوم التظاهر .

وقفا موقف الحياد وتركا محمداً وقومه يـريدان أن يتم هـذا الأمر بظهور الدعوة وانتشارها في شعاب مكة وضواحي الحجاز ومـا عسى أن يكون بعـد ذلك ومـا شأن قـريش وحلفائهـا فلم يظهرا للناس سوى عطف الرحم وحنوه .

---

(١) المأفون شديد الحمق وقليل المعرفة

استمر محمد في نشر الرسالة فمرة في البيت وأخرى في الصفا وحنياً بالطائف يرشد ويعلم فآمن من آمن وما آمن إلا النفر اليسير الذين بان لهم صدق مدعاه وتلقته عقولهم بالقبول .

ولكن أبا لهب لم يدع النبي جاداً في سيره بل راح يحذر الناس من الإستماع إلى قرآنه ويتهمه بالمرض العصبي المزمن وكان السبب الذي جرأ عليه شيوخ مكة وصبيانها والسبب لتأخر دعوته وأعراض الناس عنه

فساء حمزة ذلك بعد أن اطلع على الحديث وكان قد آمن بنبوته ورسالته مع أخيه أبي طالب سراً ولم يعلم بهما أحد ففاتح أخاه العباس بشأن أبي لهب ؛ فما كان منه إلا أن قاطع العباس أبا لهب ولم يتصل به وبقياً ينتظر أن أمر أبي طالب وأفعاله ؛ فرأياه جاداً بالدفاع عن النبي لا يعطي لطامع فيه ملمساً ولا لكاشح جانباً ؛ وقد أمر ولديه جعفراً وعلياً بالمحافظة على ابن عمهما وأمر جعفراً أن يعتنق دينه وذلك حينما رآه واقفاً في محراب جده الخليل وإلى جنبه الإمام علي عليه السلام التفت إلى جعفر وقال (صل جناح ابن عمك) .

طابت نفس الحمزة حينما رأى فعلة أخيه بعد أن ظن الظنون رأى أخاه يدعم النبي بولديه جعفر وعلي فارتاح لذلك واطمأن وذهب عنه كل ما كان يظن فبقي متكتماً بإيمانه حتى آن

يوم التظاهر والتجاهر فانفجر مصرحاً بذلك بين جماهير العـرب ووسط نواديها غير خائف ولا مـرتاب من أذاهم واختـلاف لحن أحاديثهم ، فقام وقـد عادتـه حالتـه السبعية التي تـوافيه عنـد القتال وفي الحروب لما شاهد ما فعل أبو جهل بالنبي (ص) واعلن إسلامه بعد استتار طويل مل البقاء عليه . .

مضى إلى البيت وقد أعرب عما كمن في قرارة نفسـه واعلن إسلامه .

إعلان إسلامه

كان النبي عند الصفا وقد مر به أبو جهل[1] فأذاه وشتمه ونال منه ما يحب من إلصاق العيب بشريعته وبالحط من كرامته فلم يكلمه رسول الله (ص) بل تركه وذهب إلى داره والهم آخذ نفسه محتسباً ذلك عند ربه يدعو لقومه بالهداية ، وكانت مولاة لعبد الله بن جذعان في مسكن لها تسمع جميع ما وجهه

---

(١) أبو جهل وهو : عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي أحد مشيخة قريش وزعمائها ويكنى في الجاهلية أبا الحكم وكناه النبي بأبي جهل[1] وهو الذي حفز قريشاً على القتال يوم بدر وغير عتبة واتهمه بالجبن والخيانة فقال له عتبة (مه يا أيها الرجل المصفر استه لتعلم أنيا اليوم اليوم الخائن لقومه والجبان فيهم) فضرب عتبة وجه جواد أبي جهل بالسوط وكر على المسلمين بعدما عرقب رجل فرسه بالسيف وقد قتل يوم بدر وقاتله عمر بن الجموح وابن عفراء الأنصاريان وقد اشترك في قتله معاذ ومعوذ أبناء عفراء ثم وجده عبد الله بن مسعود وبه رمق الحياة فخر رأسه وكان عمره سبعين سنة فلما رآه النبي مقتولاً قال قتل فرعون هذه الأمة

(١) انظر الجزء السادس من البحار .

أبو جهل إلى النبي من السب المقذع والكلام البذيء ، ثم انصرف أبو جهل عنه وعمد إلى ناد لقريش عند الكعبة فجلس معهم يتحدث بما يتحدثون به ؛ وما كان حديث أبي جهل سوى جهله وتطاوله على النبي .

فما هي إلا بضع دقائق حتى عاد الحمزة من صيده متوشحاً قوسه راجعاً من قنصه وكان من عادته أنه إذا رجع من قنصه لا يذهب إلى داره حتى يطوف بالبيت سبعاً ولا يمر على ناد من أندية قريش إلا ويقف مسلماً متحدثاً بما يمكن ويناسب التحدث به .

وكان أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة وأمضاهم عزماً . فلما مر بالمولاة نادته قائلة : (مهلاً يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبي الحكم بن هشام) .

أبو عمارة : ما وجد محمد من أبي الحكم أيتها المولاة .

المولاة : وجده هنا جالساً فسبه وآذاه ونال منه ما يكره ثم انصرف عنه ومحمد لم يكلمه .

سمع أبو عمارة حديث المولاة فاحتمله الغضب وكان إذا غضب لا يبصر بعينيه وقد أراد الله بذلك إظهار عز لدين محمد وقومه فسأل حمزة المولاة فقال إلى أي جهة اتجه أبو جهل .

الجارية : اتجه إلى نادي بني مخزوم .

خرج يسعى ولم يقف على نادي من تلك النوادي التي يمر بها ويناشدها على عادته المستمرة ولم يطف حول البيت فخالط الناس شيء من الرعب إذ كانت حالته تلفت أنظار القوم لما يرونه متوشحاً قوسه متقلداً سيفه وقد امتلك الغضب جميع جوارحه وبدا جلياً في أسرة وجهه فخف الناس خلفه ليسمعوا ما يقول وليبصروا ما يفعل سيد قريش وبطلها ، حتى حاذى نادي بني مخزوم فوجد أبا جهل في قوم من بني مخزوم قد أحاطوا به ، فاندفع بنفس مغضبة وقلب ثائر هائج ووقف على أبي جهل وقد رفع قوسه وضربه بها فشجه شجة منكرة وهو يقول :

(اتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فرد ذلك علي أن استطعت) .

نهض نفر من بني مخزوم وقد شحذوا سيوفهم واستلوها من أغمادها يريدون الإنتقام من حمزة والثائر لسيدهم وقد ناله الضيم والهوان وهو فيهم وذلك مما لا ترضاه أنفسهم وتطيق حمله ضمائرهم والإغضاء على هذا عار لا ينمحي .

التفت أبو جهل لقومه مخففاً غيظهم قائلاً (دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً) .

تراجع أبطال مخزوم بعد أن عرفوا أنهم أهل الإبتداء بالجناية وأن سيد قريش لم يعتد عليهم وإنما جاء طالباً بوتره . ثائراً لكرامته التي اعتدى عليها زعيمهم فارجعوا السيوف إلى

أغمادها مطأطئين رؤوسهم حياءً من ابن عبد المطلب الأسد الهائج وقد ذكر المؤرخون غير ابن إسحاق أن كلام أبي جهل للنبي عندما كان عند الحجون وأنه صب على رأسه التراب ووطأ برجله على عاتقه وان المرأة التي أخبرت حمزة سلمى مولدة صفية بنت عبد المطلب وانه قال لها (اأنت رأيت هذا الذي تقولين) فقالت : نعم فدخل حمزة البيت سريعاً فنظر في الخلق ولم يتكلم وقد عرف في وجهه الغضب حتى وقف على أبي جهل فحمل عليه بالقوس فضربة ضربة أوضحت في رأسه فقامت بنو مخزوم إلى آخر الحديث فقال حمزة « أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله والله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين وقد ذكر هذا الحديث صاحب الصفوة وخرج منه ذكر الأيضاح بالقوس » .

فما ترى أيها القارىء في كلمة أبي جهل دعوا أبا عمارة فإني قد سببت ابن أخيه أترى أنه اعترف بذنب استوجب أن يلاقي جزاءه فقدم على ذنبه أم أنه خاف على قومه بني مخزوم من سيوف بني هاشم وأعمامهم من قريش أم إن هناك نظرة سياسية ألقاها أبو جهل فأدرك منها أمراً خفياً غير هذا ولا ذاك فقد أصاب الهدف وما أخطأ الرمية .

نعم إن أبا جهل لم يخف من سيوف بني هاشم وأنها لسيوف معروفة إذا صرت الحرب أسنانها ودارت رحاها .

ولم يك باعترافه بالذنب الذي اقترفه وجناه على رسول الله (ص) نادماً على فعله .

ولكنه خاف اشتداد الأزمة ووقوع الفتنة فتميل نفوس بني هاشم إلى محمد وتتبعها قبائل قريش وتحذوا حذوها حلفاؤها فتوقد الحرب نارها فتكون حرباً عن مبدء وعقيدة يكون من نتاجها انقلاب العقائد وتغير الآراء وافتراق الكلمة في صفوف قريش ، فيخسر أبو جهل التمسك بالعقائد والمقدسات ويكون الربح بجانب محمد فان الفتنة والضجة تفسح المجال لمحمد أن يبث دعوته وينشر تعاليمه وأحكامه فلا بد وأن يصبح أبو جهل مسوداً بعد أن كان سيداً ورعية بعد أن كان راعياً فيسلب الامرة والزعامة .

إذن لم يكن عداء أبي جهل لمحمد عداءً دينياً وذباً عن عقيدة ولكنه عداء أطماع وزعامة ؟ كيف لا يقر أمام الحمزة بذنبه ليدفع هذه المشاكل التي تنقض عليه غزله وتسلب مجده التالد والطريف بعدما نظر بشرع محمد وأحكامه فوجده ديناً لا يفرق بين العبد والمولى والقوي والضعيف وبين إنسان وآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح .

فضل أبو جهل الذلة والإستكانة ساعة في ناديه ليبق منعماً بثرائه وقومه وعرف أن الإسلام سيقوي بإسلام حمزة وإعلانه بين جموع قريش .

وقد زعم بعض المؤرخين أن حمزة أسلم في ذلك الحين ولم يكن قبل ذلك مسلماً[1] وانه أسلم قبل أن يسلم عمر بن الخطاب بثلاثة أيام والصحيح أن الحمزة أسلم منذ بشر محمد بدعوته وقال آخرون أنه أسلم في العام الثاني من الدعوة وأنه كان في حصار الشعب من المسلمين الذين بلوا بلاءً حسناً كما ذكر ذلك الإمام علي بن أبي طالب في كتاب ارسله إلى معاوية وقد ذكر الشعب فقال فيها قال في كتابه (فأرادوا قتل نبينا واجتياح أصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل ومنعونا العذب وأحلسونا الخوف واضطرونا إلى جبل وعروا وقدوا لنا الحرب فعزم الله أنا على الذب عن حوزته والرمي من وراء حومته مؤمننا يبغي بذلك الأجر وكافرنا يحامي عن الأصل) وقد أراد بالمؤمن نفسه وخديجة وأباه أبا طالب وعمه الحمزة وبالكافر عقيل والزبير بن المطلب واضرابهما من بني هاشم ممن لم يؤمنوا بالله وبالنبي محمد .

هذه نفسية حمزة تصورها لنا الذكريات التي احتفظت بها الكتب واعتز بها المحدثون وقد سجلوها غرراً ناصعة ولم تسجل لأخيه أبي لهب إلا المخازي والفضائح التي قام بها بنفسه وبمساعده أم جميل .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣١٣ .

إلى الشام

سار عير محمد مثقلاً بأموال خديجة متجهاً نحو الشام وقد حف بهذا العير بطلان من أبناء عبد المطلب الحمزة والعباس وأربعون رجلاً من قريش وقد أثقل حمزة سبعة جمال له حاملة الأديم نحو الشام فاجتاز العير مرحلتين أو ثلاثاً فنضب ماؤه وكان قد سبقهم أبو جهل وقد ألقى الحجارة[1] في بئر على قارعة الطريق وعفى آثارها لكي يموت محمد وأصحابه عطشاً فقام النبي وقصد الرسم والآثار وغرس سهماً فيها وجرى الماء كالأنبوب من أعلاه وتلك كرامة ظهرت لمحمد قبل دعوته فصاح حمزة يالقريش هذا محمد وقد سقاكم الماء بكرامته وفضله كما قد سقاكم جده من قبل هلموا واستقوا واكثروا منه .
فشرب القوم ورووا جمالهم وارتحلوا آمين الشام فعظم النبي في عين أخيه حمزة فأخذ يكبر شأنه ويجل قدره ويحسب لما شاهد ورأى ألف حساب حتى وصلوا الشام وباعوا ما لديهم ولم يبق إلا النبي فامتنع عن البيع في حينه حتى اليوم الثاني فارتفعت

(١) ناسخ التواريخ والجزء السادس من البحار للمجلسي .

السوق فباع بأثمان وأرباح جليلة ولم يبق عنده إلا حمل أديم واحد فجاءه رجل يهودي[٢] يقال له سعيد بن قطمور وكان من أحبار اليهود وكهانها فاشترى الأديم منه ودعاه إلى منزله وكان سعيد قد عرف محمداً بسمائه ودلائل النبوة بارزة فيه فلما وصل داره القى عليه طاق رحى كان في صحن داره فوقعت الرحى على صبيين له فماتا فلما شاهد سعيد ما فعل بأولاده نادى اليهود وهتف بهم وقال : اعلموا انه قد جل ببلدكم الرجل الذي يبطل أديانكم وقد دخل داري وأكل طعامي وقتل أولادي فاتبع اليهود أثر محمد وقصدوا العير التي فيها ولما شاهدهم العباس هتف بقريش أن تأخذ العدة والأهبة لقتالهم فتهيأت قريش للحرب ولبس حمزة درعه وركب جواده فجبن اليهود وعادوا للسلم والمفاوضة فانفذوا سبعة رجال عز لا يقاومون قريشاً في شأن محمد وما سيحدث منه بعد فيهم وما صنع بصاحبهم فاسلموه[٣] لنا فنحن نكفيكم أمره فقال الحمزة (يا ويلكم هيهات أن نسلمه لكم فهو نورنا وسراجنا ولو تلفت فيه أرواحنا فهي فداء له دون أموالنا

وانك لتشاهد أن هذا أول موقف وقفه ابن عبد المطلب

---

(٢) الجزء السادس من البحارج ٦ ص ٦٩

(٣) البحارج ٦ ص ٦٦

أمام محمد فادياً نفسه مضحياً بها دونه ، وله موقف آخر في طريق الأوبة إلى مكة مع أبي جهل عندما وصل عيرهم إلى صومعة بحيرى الراهب الذي طلب محمداً وهام بحبه مترقباً ظهوره في جزيرة العرب فلما حط الركب أثقاله شاهدهم بحيرى فجاء طالباً محمداً فشاهد أبا جهل فحسبه زعيم العير وطلب منه أن يتناول الطعام في صومعته مع جميع قومه فأجابه إلى ذلك وقد خلفوا محمد عند متاعهم لأمانه وصدقه فلما حضروا الصومعة وقدم بحيرى المائدة لم يظفر بضالته التي دعى القوم من أجلها فأخذ صحيفة بيمينه وأكثر النظر بها وبوجوه القوم فزعق بأعلى صوته ورمى القلنسوة عن رأسه ونادى واخيبتاه وأطول شقوتاه يا سادات قريش ويا رجال بني هاشم أهل بقي منكم أحد فقال أبو جهل بقي منا فتى أجيراً على أموال بعض نسائنا .

سمع الحمزة التعريض بمحمد والتوهين به فامتلأت أرجاء صدره غيظاً فقام إلى أبي جهل وضربه ضرباً وجيعاً والقاه على قفاه وقال : (يا وغد الأنام لم لا قلت تأخر البشير النذير والسراج المنير عند بضاعتنا وأموالنا لأمانه وما فينا أصلح منه) .

وهذا أول عداء توترت فيه الأعصاب بين أبي جهل والحمزة ولم يكن العداء في أول يوم أعلن فيه الحمزة إسلامه .

التفت حمزة إلى الراهب وقال : أرني سفرك واخبرني بما فيه .

الراهب هذا سفر فيه صفة النبي المبعوث من أم القرى وهو آخر نبي يبعثه الله ليحيى به سنة جده إبراهيم الخليل وينشر العدل ويمحق كل جور وضلالة وبدعة وهاك استمع عن صفاته لا بالطويل الشاهق ولا بالقصير اللاحق معتدل القامة بين متنيه علامة تظله الغمامة يبعث من تهامه شفيع العصاة يوم القيامة) .

ترنح الحمزة حين سمع هذه الصفات التي لا تنطبق على أحد منهم سوى محمد فأخذ بيد الراهب إلى الشجرة التي نزل الركب إلى جنبها فوجدها الراهب قد اخضرت بعدما يبس عودها والنبي مسند ظهره عليها والبحيرة الجافة قد جرى ماؤها فوجد علاماته وأوصافه فسجد الراهب لربه وقبل كفي النبي ونشأ حمزة قائلاً :

أنت المظلل[1] بالغمام وقد رأى الـ
رهبان انك ذاك وانكشف الخبر

(١) البحار للمجلسي ج ٦ . ص ٦٧ . وقد عولنا على هذا الجزء من كتاب البحار لنقل الرواية .

ربـيـت في بــحـبــوح مــكــة بـعــدمــا
وضــع الخليـل وفــاق فخــرك من فخــر
ورضـعـت في سـعــد لـثــدي حـلـيـمــة
كــرمـاً ففــاض الثـدي نحــوك وانحـدر

فشكره النبي على ذلك .

في مكة

رجع محمداً من الشام مزوداً بأرباح كثيرة وقد أحبته خديجة فخطبته لنفسها فأخبر بذلك الحب عمه أبا طالب[1]

---

(١) أبو طالب ، وهو عبد مناف وقيل عمران بن عبد المطلب بن هاشم وقد كفل النبي بعد موت جده عبد المطلب وقد تسلم السقاية والرفادة بعد أبيه فأطلق يمينه للإنفاق والجود حتى أقعده جوده وأفنى ما لديه فاستدان أموالاً طائلة لم يقدر على سدها فباع الرفادة والسقاية على أخيه العباس وقد لاقى المصائب والأذى أبان دعوة محمد إذ كان المحامي دونه والظهير له وقد أسلم على يده أيام أنذر محمد عشيرته وآل بيته وقد أمر ولده جعفراً أن يصلي خلف النبي حينما رآه يصلي في مقام جده إبراهيم ولم يكن خلفه إلا الأمام علي فقال (يا بني صل جناح ابن عمك) وكان شاعراً مجيداً وقد أكثر في مدح النبي والذب دونه والتحريض على الإيمان به والتمسك بدينه ولك مما قال قوله :

ولقد علمت بأن دين محمد

من خير أديان البرية دينا

وإذا أردت أن تقف على حياة أبي طالب فراجع كتاب شيخ الأباطح

وكان في المجلس أبو لهب وبقية بني عبد المطلب فأخذ أبو لهب يسخر بمحمد ويضحك وهو يقول ؟ كيف يكون ذلك وقد خطب خديجة الأشراف وأهل الأموال من قريش فلم ترض بأحد منهم فكيف ترضى بك فما وجدت عندك حتى تخطبك لنفسها وأنت يتيم أبو طالب : ومن هي خديجة حتى تأنف من محمد وهو ابن عبد الله بن عبد المطلب فإن كان همها المال فما أقل ذلك ؛ وان أرادت الشرف فمن أولى به منه .

فقام الحمزة آخذاً بيد النبي وذهب إلى دار أخته صفية وقد أعلمها الخبر قائلاً : إذهبي واستقصي الحديث فأنا هنا جالسون .

ذهبت صفية وعادت مبشرة أخاها بخطبة خديجة لمحمد فذهب أبو طالب ومعه آل عبد المطلب إلى خويلد فرآه ثملاً وكان شديد السكر فحدثوه بذلك فأبى من أن يزوج خديجة من محمد لفقره[1] فقام إليه حمزة وقد أغضبه هراء خويلد فقال له : (لا تشاكل اليوم بأمس والقمر بالشمس يا بادي الجهل ويا سخيف العقل أما علمت أنك قد ضل رشدك وغاب

(١) اختلف المؤرخون في شأن خطبة خديجة فبعضهم يروي أن الخطبة بدأت بخويلد ووكل دونه ابن أخيه ورقة كما رواه صاحب البحار ونحن راوين ذلك على حسب روايته في ج ٦/ ص ٧٦
وقال آخرون أن خويلد لم يكن في قيد الحياة والخطبة جرت أولاً وختاماً على يد ورقة .

عقلك أتثلب ابن أخينا بيننا وانه لو أراد أموالنا وأرواحنا قدمنا الكل بين يديه ولكن سوف يبين لك غب فعلك) ثم نفض أثوابه ونهض بنو هاشم وساروا إلى دار عبد المطلب فبلغ خديجة الخبر فأرسلت خلف ابن عمها ورقة بن نوفل فحدثته الحديث فقام ورقة من عندها وودعها بخير مما يسرها وما أسرع أن جاء نوفل بخويلد إلى دار عبد المطلب ليعتذر على ما فرط منه فلما قارب الدار سمع الحمزة يخاطب محمداً وهو يقول (يا قرة العين والله لأن أمرتني لأتيتك في هذه الساعة برأس خويلد) فاضطرب خويلد وقال لابن أخيه أتسمع أنت دعني أرجع

ورقة : أنظر الآن ما أصنع فقرع الباب فقام حمزة ليفتحها فوجد ورقة وخويلداً على الباب فدخلا فقال خويلد نعمتم صباحاً ومساءً وكفيتم شر الأعداء يا أبناء زمزم والصفا .

أبو طالب : وأنت كفيت ما تحذر وتخشى .

حمزة : لا أهلاً ولا سهلاً لمن طلب منا بعداً وأرانا هجراً وصداً

خويلد : ما كان ذلك مني يا سيدي وأنتم تعلمون أن خديجة وافرة العقل مالكة لنفسها وإنما تكلمت بهذا الكلام حتى أسمع ما تقول والآن عرفت أن المرأة فيكم راغبة فلا تواخذوني

فيما جرى .

الحمزة : يا خويلد أنت عندنا عزيـز كريم ولكن مـا يجوز منك إذا جئناك أن تبعد عنا .

ورقة : إنا لنحب محمداً أشد محبة ونحن على مـا تقولـون ولكني أريد أن تكون الخطبة غداة غد على رؤوس الأنام .

الحمزة : لا نخالفكم فيما تقولون

ورقة : اعلمكم أن عمي له لسان لا يخلص عنه العـرب وأريد أن يوكلني في أمر ابنته خديجة .

الحمزة : وكله يا خويلد على ذلك .

خويلد : أشهدكم اني وكلته في أمر ابنتي خديجة .

في الشعب والعقبة :

لقد لاقى الحمزة أيام الشعب الضنك في الحياة والألم الجم حيث قـاطعه قـريش فلم يخفف ذلك من عـزيمته ويشـذب من عوده بل إزداد قوة وصلابة في مبدئه وعقيدته ولذاك نراه عندمـا ينفك الحصار وتعود الحياة الأولى لبني عبد المطلب يتبـع محمداً اني سار واني اتجه فقد أصحبه ليلة العقبة هو والعباس وعلي ولمـا شعر أهالي مكة بهذا الإجتماع السري الذي عقده محمد وجماعة من أهـل يثرب أقبلوا بـالسلاح لقتـال القوم فـأمـرهم النبي أن يتفرقوا فتفـرق الأنصار ولكن حمـزة وقـف على العقبـة وقد جـرد

سيفه فلما نظر إليه القرشيون قالوا ما هذا الذي اجتمعهم عليه .

حمزة : ما اجتمعنا وما ها هنا أحد فوالله لا يجوز منكم أحد هذه العقبة إلا ضربته بسيفي فرجع القوم خائبين ثم أخذ حمزة بيد النبي وانهضه ومشى أمامه وعلي والعباس خلفه حتى أوصلوه داره وقد شهروا سيوفهم متفانين بحبه جادين بنشر دعوته ورسالته .

إلى المدينة :

انتقل النبي إلى يثرب لوجود أصحابه وكثرة مساعديه وقد أخذت الهجرة تتزايد من المسلمين خلفه وحمزة لم يتحرك من مكة بل كان قوة وأداة لتسفير المسلمين والحاقهم بالنبي حتى مضى عام أو سبعة أشهر(*) على حمزة ولم يشاهد نور النبوة ولم يتصل به ليعلمه أحكام دينه وليثقفه بآدابه العالية وأخلاقه السامية هناك تحركت في قلبه عواطف الحب وانفجرت براكين المودة ودوافع الإيمان فاشتاق لابن أخيه وتمنى قربه .

ثارت أمامه الذكريات ومثلت بين يديه حوادث أهل مكة

(*) روى ابن جرير انه هاجر بعد النبي بسبعة أشهر ؛ وروى ابن هشام في سيرته أنه هاجر إلى المدينة بعد هجرة النبي بسنة وقد اتفق الكل على أن النبي عقد لوائه الأبيض يوم السابع عشر أو السادس عشر من رمضان وأعطاه لحمزة ليعترض عير قريش وذلك في أول سنة من الهجرة .

وما لاقى فيها وما عاناه من بسطائها الأحداث ومنافقيها الشيوخ فحمد الله على فراقه لمكة وهجرته إلى يثرب وفيها أنصاره الراغبون فيه الزاهدون في غيره فاحب الهجرة والإلتحاق بالنبي وصمم على ذلك .

ولكن اطراقة سنحت على خاطره :؟ كيف أنزح عن حرم الله ودار أبي ووطني العزيز الذي طالما عرضت نفسي ونفوس آبائي للذود عنه والذب عن كيانه .

كيف أرحل عن بيت جدي الخليل وأترك سدانة البيت إلى قوم أحابيش تجمعوا من هنا وهناك واستضاؤا بنور أبي وجدي كلا لا يكون ذلك .

لم يفرغ أبو يعلى من سانحة خياله التي مرت عليه وحالت دونه ودون ابن أخيه حتى علقت في ذهنه اطراقة أخرى هدمت جميع ما بني .

دوت باذنه كلمات الراهب بحيرى وما قاله لأخيه أبي طالب أن أكثر اعداء هذا الفتى اليهود وأن معظم اليهود في يثرب فلن أدع النبي وحده وان حف به صحبه وبعض بنى عمومته .

احتلت الهواجس قلبه واقضت مضجعه فلم يطق أن يمكث في داره ويتريث في وطنه حتى تأتيه أخبار محمد ، فتذكر حصار الشعب وقد قضى فيه عامين يعاني وأطفاله ألم الجوع وقلة النصير فتأوه وتألم آه لا الدار داري ولا البيت بيتي ، فلا بد لي

من الهجرة عنه والمقام في سواه .

إني سأذهب إلى يثرب والتحق بمحمد وأكون له فيها كما كنت له في مكة سيفاً ذاباً ولساناً مدافعاً وحصناً منيعاً .

فلما أشرق فجره وراح يهيء الزاد والراحلة في جمع من المسلمين الذين لاقوا العناء بإسلامهم مستقبلين دار العزة والمنعة .

سار ركب حمزة وقد حف به المهاجرون يقطعون المهامة والقفار حتى قاربوا المدينة وباتوا حواليها وما أحبوا أن يدخلوها إلى الصباح فيدخلوها آمنين وقد نزل المسلمون عند إخوانهم ونزل حمزة دار أسعد بن زرازة أخو بني النجار بعد أن حضوا بلقاء النبي فسر بهم وتم سروره بعمه حمزة وعند ذلك آخى بينهم وبين الأنصار وآخى بين عمه حمزة وبين ولده زيد بن حارثة(*) فقال النبي يا عم هذا زيد أخوك فرحب ابن

(*) زيد بن حارثة بن شرحبيل الكعبي وقد تبناه النبي بعد أن وهبته خديجة له وسبب وقوعه بيد خديجة انه أغارت خيل القين في الجاهلية على دور بني معن فاحتملوا زيداً وهو غلام قد جاء مع أمه سعدي لأخواله فباعوه في عكاظ فاشترته خديجة ووهبته للنبي فأصاب والده غم شديد لافتقاده وضياع خبره عنه وبعد مضي زمن حج قوم من بني كليب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه فقال أبلغوا أهلي هذه الأبيات .

أحن إلى قومي وإن كنت نائياً
بأني قطين البيت عند المشاعر

عبد المطلب بذلك الأخاء الجديد ، وقد تمكن في نفسيهما الحب الصادق والأخاء الإسلامي وبقيا على ذلك حتى توفي الحمزة فحزن زيد على أخيه الحزن العميق .

= فكفوا عن الوجد الذي قد شجاكم
ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة
كرام معد كابراً بعد كابر

فانطلقوا وأخبروا أباه فخرج حارث وكعب أخوه بفدائه فقدما مكة يسألان عن النبي فقيل لهما هو في المسجد فدخلا عليه وقالا يابن عبد المطلب يابن سيد قومه أنتم أهل حرم الله تفكون العاني وتطعمون الأسير جئناك في ولدنا عبدك فامنن علينا واحسن في فدائه فإنا سندفع لك قال النبي وما ذاك قالا زيد . فقال النبي أو غير ذلك أدعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني فداء فقالا زدتنا النصف فدعا زيداً فأبى أن يذهب مع أبيه وعمه فاختار رسول الله فغضب أبوه وعمه فقالا ويحك اخترت العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك فعندها أخذ النبي بيد زيد وأوقفه نحو الحجر ونادى اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني حتى دعاه الناس زيد بن محمد وقد شهد حروب النبي واستخلفه على المدينة في بعض غزوا ته فعدل بحكمه وعامل أهل المدينة بما يعاملهم رسول الله وكان زيد كثير الصمت إلا من ذكر الله وقد قتل في موته وذلك عندما أرسله النبي أميراً على الجيش في شهر جمادي الأولى في السنة الثامنة من الهجرة ودفن مع القتلى هو وجعفر الطيار .

عقبه :

تـوفي حمزة ولم يعقب غـير ولدين وهمـا عمارة ويعـلى وبنت وأسمها أمامة وقد تركهم أطفالاً يـوم أحد وقـام بتربيتهم النبي وبعده الإمام علي حتى إذا جاء يوم صفين وكان فيه عمارة فقاتل مقاتلة الأبطال فقتل تحت راية ابن عمه علي بن أبي طالب .

ولم يعرف التاريخ عن ولده يعـلى شيئاً غـير أنه عـاش زمناً طويلاً وقد أعقب خمسة أولاد وكلهم لم يعقبوا شيئاً

أمـا بنته فقـد اختلف المؤرخون في أسمهـا فقـال صـاحب تـاريخ الخميس أن أسمهـا أمامـة ؛ وأمها سلمى بنت عميس الخثعميـة وكـانت تحت عمـرو بن أبي سلمى المخـزومي ربيب رسول الله وقد روى أن اختلافاً حدث في حضانتهـا بين الإمـام عـلي وأخيه جعفـر بن أبي طالب وزيـد بن حارثـة وذلك بعـد مقتل حمزة فاختصما عنـد رسول الله (ص) فقـال جعفر أنها ابنة عمي وخالتها تحتي فأنـا أولى بتربيتهـا وقال الإمـام علي أنها ابنـة عمي ، وقال زيـد بن حارثـة أنها ابنة أخي فقضى النبي لجعفر بتربيتها إذ قال الخالة بمنزلة الأم فسكت القوم وقام جعفر بتربيتها حتى إذا كبرت وفارقها بعد واقعة موته .

وروى صـاحب الإستيعاب في ج ٢ / ص ٧٢٥ في تـرجمة أسماء بنت عميس أن جعفراً تـزوج بـأسـماء فـأولـدهـا محمـداً وعبـد الله وعونـاً وكانت من النسـاء اللاتي هـاجرن الهجـرتين

الحبشة والمدينة ومن قبل ذلك كانت تحت حمزة فأولدها بنتاً تسمى أمة الله ، وقال أيضاً : أن حمزة تزوج بأخت أسماء سلمى وهذا مطابق لقول صاحب تاريخ الخميس وهنا تصح رواية الخصام حيث قال جعفر أن خالتها تحتي .

وروى آخرون أن أمها سلمى بنت عميس وقد ماتت بعد حمزة بأيام وقد أولدها بنتاً أسمها فاطمة وأمامة وأمة الله فتسمى بهذه الأسماء وهي التي أشير على النبي بزواجها فأبى ذلك .

أزواجه :

تزوج حمزة بخولة بنت قيس بن فهد الأنصارية فأولدها عمارة ويعلى وتكنى أم محمد .

وقيل خولة بنت ثامر ؛ وقيل ثامر لقب لقيس بن فهد وقد توفي عنها حمزة يوم أحد فتزوجها رجل من بني زريق وكانت خولة راوية وقد روى عنها عبيد الله بن الوليد سنوط[١] أن النبي وحمزة تذاكرا بأمر الدنيا فقال النبي : أن الدنيا خضرة حلوة فمن أخذ بحقها بورك له فيها ورب متخوض في مال الله له النار فله الويل له الويل يوم القيامة[٢] وتزوج بسلمى بنت عميس فلم يعقب منها غير بنت تسمى أمة الله وهي التي مر ذكرها آنفاً .

---

(١) سنوط وهو لقب عبيد الله أو لقب أبيه راجع مادة سنط في القاموس .

(٢) روى ذلك ابن الكلبي .

إيمانه

قد يتصور الإنسان الرجل الشجاع ، والفارس المغوار ، والقائد العظيم فلا يعلق بذهنه ويرتسم بمخيلته شيء من الرحمة والرأفة .

فلا يتصوره إلا سفاكاً للدماء ولوعاً بإزهاق الأرواح ، لا يعرف العطف ولا يحلم باللين والرحمة

يود أن تحدث في كل يوم هيعة صاخبة ، ومعركة دامية ، وحرب عوان ليخوض غمارها فيقهر اعدائه الذين يترقبون فشله في المغامرات وسوح القتال ، وليفوز بالأكرام والتبجيل بين أهل وطنه وبلاده ، وليدنو من أميره وسلطانه .

أجل هذا كل ما يتصوره المتصور الذي يريد أن يبحث عن حياة بطل من الأبطال المجاهدين ولم يعرف أكثر من هذه الخلال في كل بطل أفنى عمره في المعامع والحروب

ولكنا إذ نستعرض حياة سيدنا الحمزة ونستقصي آثاره

وصفاته لم نجد تلك الخلال من شأنه وطبعه ، بل نشاهد بطلاً يحمل ما لا يحمله سواه من الأبطال المغامرين الذين تعودوا على الفتك والقتل .

فقد كان بطلنا يحمل ما بين جنبيه قلباً رقيقاً ؛ وعاطفة حساسة نبيلة وعينين مهراقتين تنسكبان في جوف الليل كما ينسكب السحاب المرزم ، يتأثران بكل منظر يرسل الحزن ويثير العطف والحنان .

لم تكن فيه غطرسة القائد وكبرياء الأمير ؛ وإعجاب البطل وزهوه ولم تكن فيه الخشونة في المنطق والغلظة ما بينه وبين جنده وأخدانه .

ولم يعرف التيه والفخر على الأباعد من الناس دون أحبابه وذويه الذين قضوا معه شطراً من العمر .

كان مرحاً في حديثه باسم الثغر متهلل الوجه كثير الحياء ، إذا جلس مع جنده وقومه يجلس كأحدهم يحدثهم بعذوبة منطق وصوت خافت يترفع أن يرفع صوته على جلسائه الذين أحاطوا به .

لقد روض نفسه حتى أخمد منها نار الغطرسة والكبرياء بعدما علم أنهما الجهل والنقصان اللذان يخرجان الإنسان عن نهج الحياة الواضح فلم ينخدع بزبرجها الكاذب وزخرفها اللماع .

وكيف وهو خريج جامعة ابن أخيه المثل الأعلى والرسول الأعظم الذي خدم الإنسانية وسهر على تربيتها وتحريرها فحطم قيود الجهل وفك أغلالها فمدرسة محمد مدرسة أخلاقية علمت البشر أنفسهم بعدما كانوا يجهلونها وكل من عرف نفسه ذلل جموحها وابتعد عن الطيش والغرور المرديين .

إن التعاليم والدروس التي تلقاها من معلمه صيرته براً تقياً رقيق العاطفة طيب الضمير محمود الفعال يزن الأمور بنفسه فيضعها في محالها ومواضعها . فما استعمل القوة والبسالة إلا للإنتقام من أعداء المبدء والعقيدة الذين يوصلان العالم إلى شاطىء السلام ويدلانه على طرق الخير .

استعملها بعد أن أيقن أنهم مصرون على الشرك عاكفون على الجهالة يتربصون بعقيدته وبنبيه الدوائر فحارب وأزهق ما يستطيع من أرواح شريرة لينور الفكر وليطلق سراحها من أصفاد سجون التقاليد العمياء التي أدت بقومه إلى حيث ما يرى من التفسخ الخلقي فكان إرهابه إرهاباً حسناً يؤدي بهم إلى السعادة ولا يحتم عليه ذلك إلا الوازع الديني الذي قام من أجله .

كان إذا فرغ من جهاده ونضاله يرمي لأمة حربه متجهاً إلى محرابه بكل شوق وإقبال ؛ يقبل على خالقه بروحه متبتلاً بين يديه يسأله الهداية لقومه وصحبة الذين سأموا مكثه فيهم

وطلبوه والرسول للفتك به والتنكيل بنبية بعد الذهاب عنهم والرحيل عن ديارهم قائلاً في دعائه .

(اللَّهم أهدهم لدينك ؛ وانزع الغل عن صدورهم ليتفقهوا بشريعتك التي أرسلت محمداً بها وجعلته هادياً ونذيراً) .

شهد الرسول موقف الحمزة وسمع دعاءه الذي يدعو به لأهل بيته وعشيرته بالخير والصلاح ، أحبه وأكبره وود أن يكمل إيمانه ، فقد دعاه ليلة أحد ودعا علياً وفاطمة عليهما السلام فقال بايعوني بيعة الرضا .

حمزة : بأبي أنت وأمي على ما نبايعك السنا قد بايعناك[1]

النبي : نعم يا أسد الله وأسد رسوله تبايع لله ولرسوله بالوفاء والإستقامة لابن أخيك إذن تستكمل الإيمان .

حمزة : سمعاً وطاعة لك يا رسول الله ؛ وبسط يده .

النبي : يد الله فوق أيديكم علي أمير المؤمنين ؛ وحمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار في الجنة هذا شرط من الله على جميع المسلمين فاطمة سيدة النساء والسبطان الحسن والحسين

---

(١) انظر الجزء ٦/ من البحار ص ٦٤٦

سيدا شباب أهل الجنة هـذا شرط من الله عـلى جميع المسلمـين من الجن والإنس أجمعين فمن نكث فإنما ينكث على نفســه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً .

ثم قـرأ النبي قولـه تعالى : ﴿ **إن الـذين يبايعـونك إنمـا يبايعون الله** ﴾ وعن الإمام الصادق في قـوله تعـالى : ﴿ **ومن المؤمنين رجال صدقوا بما عاهدوا الله عليه** ﴾ أن لا يفـروا أبداً ﴿ **منهم من قضى نحبــه ومنهـم من ينتــظر ومــا بــدلــوا تبديلا** ﴾ .

قال هؤلاء عمي حمزة وعمي جعفر وأبي علي بن أبي طالب عاهدوا الله أن لا يفروا من معركـة ندبهم النبي لهـا فأمـا الذي قضى نحبه فهو حمزة وأما من ينتظر فهو عمي جعفر وأبي علي .

وفي قوله تعالى : ﴿ **إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير** ﴾ ، فقال عليه السـلام ذلك في عـلي وحمزة وجعفر والآيـات التي نزلت في حمـزة وجماعتـه الذين معـه تنوف على سبعين آية ولا حاجة لذكرها كلها هـاهنا فـإنها أشهر من أن تخفى وقد ذكر معظمها صاحب السيرة النبوية في سيـرته وإني لأعجب من محب الدين الطبـري حيث قد ذكـر في كتابـه ذخائر العقبى خبراً بعيداً عن حمزة وخلقه الفاضل من أن يفعله أو تحدثه نفسه بعقله وها أنـا ذا أروي لك ذلـك ولا أقف دونه موقف المدافع عنه ولكني أتكلم للحقيقة والواقع .

لقد روى محب الدين راوياً عن البخاري ومسلم بسند عن

أنس عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام انه قال : (أصبت شارفاً[1] من مغنم بدر وأعطاني رسول الله شارفاً آخراً فانختهما عند باب رجل من الأنصار أريد أن أحمل عليهما أذخراً[2] فأبيعه واستعين به على وليمة فاطمة ومعي رجل من بني القينقاع وحمزة بن عبد المطلب في البيت وقينة تغنيه

ألا يا حمز للشرف النواء[3]
وهن معقلات بالفناء

فثار عليهما الحمزة بالسيف فجب اسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما قال فنظرت إلى أمر أفظعني فأتيت رسول الله (ص) ومعه زيد بن حارثة مولاه فخرجت معه حتى قام على حمزة فتغيظ عليه فرفع حمزة بصره وقال لزيد هل أنت إلا عبد عبيد آبائي فرجع زيد إلى رسول الله يقهقر عنه) .

أخرج هذا الحديث البخاري وصحيح مسلم وعدا هذا الحديث من الأحاديث الصادقة التي لا تقبل الرد والنقاش . ؟ وكيف والحديث ينقض بعضه بعضاً إذ نسبا شرب الخمرة إلى حمزة وسبه للنبي وزيد ولم يجر النبي عليه الحد المفروض لشارب الخمر واستباحته له وذلك بعد قوله تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ ولا خلاف بهذه

(١) الشارف البعير .

(٢) الأذخر نبت طيب الرائحة .

(٣) النواء السمان .

الآية التي أعربت عن تناول شرب الخمرة أنها مكية وأن واقعة بدر كانت بعد الهجرة بسبعة أشهر على قول وأنا لنستنكر من النبي بعد نزول آية التحريم ونهيه عن شرب الخمرة أن لا ينزل العقاب بعمه وهو المتنفذ في ذلك الحين في رقاب المسلمين وأموالهم ؛ فإن أخذته الشفقة فقد خالف الأحكام الإلهية وذلك لا يصدر من النبي وان صده عدم القدرة والإستطاعة فهو الحاكم المطاع في حينه الذي يسير الناس إلى الموت فيلقون بأنفسهم بتلك الغمرات وذلك الهب المتوقد غير مبالين ولا خائفين .

ولا شك أن سكوت النبي عن حمزة يفسح للغير إرتكاب الذنوب الأخرى ويشجع حمزة على شربها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يمكن التصور وإنا لنستنكر أن تصدر جميع هذه الجرائم من عم النبي ومن النبي نفسه حيث أقر عمه بسكوته على الباطل ولم يتعرض له بأي شيء من أنواع التأديب والتأنيب وهذا مما لا ترضاه أحط نفس دون نفس محمد التي اكتنفتها الفضائل وأحاطت بها المكرمات .

وإنا لنأسف أن يروي ذلك أئمة المسلمين الذين أوقفوا أنفسهم رهناً لتصحيح الأحاديث والبحث عن رواتها ليفرقوا بين الغث والسمين .

وإني لأعجب من صاحب البخاري وصحيح مسلم أن

يخرجا هذا الحديث المفتري ويثبتانه في كتابيهما ثم يرويان أحاديث أخرى ترفع سيد شهداء أهل الجنة إلى أعلى درجة من درجات الشرف والمكانة والمنزلة عند الله فقد جاء في كتاب البخاري ج ٣ وكما قد رواه صاحب الإستيعاب في معرفة الأصحاب في ترجمة حمزة ما هو (إن النبي (ص) قال لما أسري بي إلى السماء وجدت اسم عمي الحمزة مكتوباً على ساق العرش بخط بارز الحمزة أسد الله وأسد الرسول) .

فأين هذا الذي تسالما على صحته وسلما بصدوره عن النبي - وإن كنا لا نطمئن به ولا نركن إليه - من ذلك الخبر الذي شوه الحقيقة وأودع في القلوب دماءً تغلي على سيد شهداء أهل الجنة فإن كان هذا صحيح وذلك صحيح فسيان عند الله الكافر والمؤمن والمطيع والعاصي وإن شارب الخمرة وشاتم الرسول وآكل الأموال بالباطل وسامع الغناء مكتوب اسمه على ساق العرش ومعترف بفضله عند ربه ، وحاشا النبي الذي لا يجوز عليه الخطأ أو النسيان من أن يقر عمه على جريمة أو إثم وحاشا الله وهو العادل الذي لا يظلم بحكمه ولا يجور بعدله أن يساوي بين المؤمن والكافر والبر والفاجر وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

نعم انا قد عرفنا عظم شأن فتى عبد المطلب وعلو منزلته بواسطة الوحي والأحاديث النبوية التي وردت بحقه والتي لم تخرجه عن مستواه الحقيقي ولم ترفعه إلى السماء ليكون اسمه مرسوماً على ساق العرش .

شاعريته

للعربي الجاهلي نفس شاعرة تتأثر بحوادث الحياة فينطبع بها كل ما تشاهده من مصاعب وأتعاب ، وتتحسس بذكريات لهو ومرح مرت عليه ؛ فتثور عاطفته مصورة أمامه جميع ذكرياته

أو تراه واصفاً سيفه ورمحه ؛ أو جواده وجمله ، أو مفتخراً بنفسه وقبيلته أو ذاكراً حزوى وزرود ؛ ولم يتعد هذه الأبواب فلذلك جاءت عواطف الشعراء الجاهليين متشابهة الأغراض متقاربة المعاني .

ولما انقرض ذلك الدور وجاء دور الإسلام وجد قوم من الشعراء من أدركوا العهدين فتجددوا بعض التجدد في الشاعرية والتفكير .

ولكن الشعراء الإسلاميين الذين جاءوا متأخرين أبدعوا كل الإبداع حتى ولجوا كل أبواب الشعر لما بزغ فيهم فجر الثقافة والعلم والعرفان فكان ما كان من تعداد الأغراض واختلاف المعاني وقوة التفكير .

وها أنا ذا أعرض عليك صـرره شاعـر جاهـلي إسلامي لم يكن معروفاً بين قومه وآله بالشعر كما عرف بـه أخوه أبـو طالب وأقرانه من قريش رغم ما توفرت لديه أسباب قرض الشعـر من الأنس والترف والإنغماس في ملاذ الحياة التي ارتضـاها لنفسـه في صباه وعنفوان شبابه .

فقد قضى جل حياته بالصيد واللهـو والسمر الممتـع ولكن هذه الأسباب لم تولد فيه نفساً شـاعرة ، ولا نـدري فلعله قال الشعر وأكثر منه إلا أنه لم يجد له راويـة يروى عنـه كما يصـادف ذلك لكثير من أضرابه فكان حظهم النسيان .

وإن ما جاءنا على سبيل الصدف والحـوادث التي حضرهـا فحفظها الرواة وسجلها المؤرخون .

قد يكون هذا وقد يكون ذاك ولكنا على كل حال نذكـر ما جاء لدينا في مواقف محصـورة أيام حصـاره في الشعب ونصرتـه إلى محمد ولذلك لم نشاهد له أكـثر من ذلك فهي أيـام لها أثـرها البليغ في نفسه فجعلت منه شاعراً يفيض لسانه بالشعـر واصفاً ما كان يشاهد من سور الحرب وأهوالها

كان الوقت وقت حرب وطعان وبلاء وفخر فـاندفـع قومـه يترنمون بأناشيدهم وأراجيزهم حـين أموا عـير أبي جهل وأرادوا نهبه . وقتل تلك الفئة التي حفت بالعـير محافـظة عليه ؛ وقـد أنـافت عليهم عدة وعـدداً ولم يكن معه غـير ثلاثـين رجـلاً من

المهاجرين .

لم يفتخر حمزة بسيفه وبسالته التي قام بها هو وأصحابه الذين لبوا دعوة نبيهم ؛ ولم يفتخر بنسبه وشرفه من قومه ، بل كان له منهج واحد سلكه ولم يحد عنه ذلك ؛ وهو نشر الدعوة الإسلامية والأسف الشديد على قومه لما تعاموا عن هذه الحجة اللاحبة وسلكوا محجة الغواية والجهل فانفجرت عاطفته وإليك ما روته بعض الكتب في موقفه مع أبي جهل حينما بعثه النبي لغزوة سيف البحر لولا أن يحول بينه وبين القوم حائل فيتراجع حمزة وقومه ويفر أبو جهل بأمواله فيقول :

ألا يا لقومي للتحكم والجهل
وللنقض من رأى الرجال وللعقل
وللراكبينا بالمظالم لم تطأ
لهم حرمات من سوام ولا أهل
كانا تبلناهم[1] ولا تبل عندنا
لهم غير بالعفاف وبالعدل

وأمر بإسلام فلا يقبلونه
وينزل منهم مثل منزلة الهزل
فما برحوا حتى ابتدرت لغارة

---

(١) التبل العداوة

لهم حيث حلوا ابتغى راحة الفضل
بأمر رسول الله أول خافق
عليه لواء لم يكن لاح من قبلي[٢]
لواء لديه النصر من ذي كرامة
اله عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا
مراجلة من غيظ أصحابه تغلى[٣]
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا
مطايا وعقلنا مدى عرض النبل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا
وما لكم إلا الضلالة من حبل
وما نحن إلا في ثلاثين راكباً
وهم مائتان بعد واحدة فصل
فيال لوى لا تطيعوا غواتكم
وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل
فإني أخاف أن يصب عليكم
عذاب فتدعوا بالندامة والثكل

لقد أعرب لنا شاعرنا حمزة في قصيدته عن نفسه الحرة التي

---

(٢) يذكر علماء التاريخ أن النبي عقد لوائه الأبيض وهو لواء الحمد وأعطاه إلى سيدنا حمزة وهو أول لواء حمل في الإسلام

(٣) المرجل القدر

لم تحمل إلا العطف والصلاح لقومه من آل لوى وأخواته من آل هاشم الذين تخلفوا عن نصرة الحق وظلوا محافظين على عقائدهم ومبادئهم تحت رعاية الباقين من شيوخهم وزعمائهم .

فها هو ذا يلقي عليهم درساً من الوعظ والإرشاد محذرهم من الهون الذي سينزل بهم من سيوف المسلمين اذان قلوبهم تقطر غيظاً كل يريد أخذ الثأر لنفسه والإنتقام من أهل مكة وقد حان وقت الإنتقام وطلب الثأر وسيرون سيوف أولئك النفر الذين أهانوهم واحتقروهم ولم يمدوا لهم يداً بالسوء ولم يقابلوهم بالمكروه والأذى كما قابلوهم بالحبس مرة والضرب أخرى والنفي والإستيلاء على ما يملكون .

يهتف بهم أن يرفضوا الهتهم وغواتهم من قومهم ويتمسكوا بالله وبمحمد ودينه يهتف للمبادرة لفعل الخير والصلاح ويحذرهم سوء العاقبة .

هناك يلتفت إليه أبو جهل فيجيبه قائلاً

عجبت لأسباب الحفيظة والجهل
وللشاعبين بالخلاف وبالبطل[1]

(١) قال ابن هشام أن لعلماء الشعر نقاش في هذين القصيدتين يعني قصيدة حمزة وقصيدة أبي جهل وقد ذكرها جل المؤرخين وإليك كتاب المناقب والمثالب للقاضي الشافعي ، وكتاب ناسخ التواريخ والبحار

الخ وهي قصيدة طويلة لا حاجة لذكرها هنا

وهلم معي واستمع ما يلقي عليك مرة أخرى وهي من الشعر الواقعي وذلك بعد رجوعه من معركة بدر وفرار قريش من سيوف المسلمين فقال .

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر
وللحين أسباب مبينة الأمر[2]
وما ذاك إلا أن قوماً أفادهم
فخافوا توصوا بالعقوق وبالكفر[3]
عشية راحو نحو بدر بجمعهم
فكانوا رهوناً للركية من بدر
وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها
فساروا إلينا فالتقينا على قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية[4]
لنا غير طعن بالمثقفة السمر
وضرب ببيض يختلي الهام حدها
مشهرة الألوان بينه الأثر[5]
ونحن تركنا عتبة الغي ثاوياً

(٢) الحين : الموت والهلاك .
(٣) أفاد : أهلك وتواصوا قيل تواص على أنه فاعل إلى أفاد وهو الأصح الأقرب .
(٤) المثنوية الرجوع والإنصراف .
(٥) الاختلاء القطع : والأثر فرند السيف .

وشيبة في قتلى تحرجم في الجفر[٦]
وعمرو ثوى فيمن ثوى من حملتهم
فشقت جيوب النائحات على عمرو[٧]
جيوب نساء من لوى بن غالب
كرام تفر عن الذوائب من فهر
أولئك قوم قتلوا في ضلالهم
وخلو لواءَ غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله
فخاس بهم أن الخبيث إلى غدر[٨]
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً
برئت إليكم ما بي اليوم من صبر
فإني أرى ما لا ترون وانني
أخاف عقاب الله والله ذو قسر
فقدمهم للحين حين تورطوا
وكان بما لم يخبر القوم من خبر
فكانوا غداة البئر ألفاً وجمعنا
ثلاث مئين كالمسدمة الزهر[٦]

---

(٦) الجفر البئر

(٧) عمرو ابن هشام وهو أبو جهل

(٨) خاس العهد وبالعهد نقضه وبالوعد أخلف ، وبفلان غدره

(٦) المسدمة جمع مسدم وهو الفحل من الإبل : والزهر البيض

وفــيــنــا جــنــود الله حــين يمــدنــا

بهم في مقــام ثم مســتــوضــح الــذكــر

فــشــد بهــم جــبــريــل تحت لــوائــنــا

لــدى مــأزق فــيــه منــايــاهــم تجــري

فقد سمع الحرث بن هشام قصيدة حمزة فأجابه قائلاً :

ألا يــا لقــومي للصبــابــة والهجــر

ولــلــحــزن مــني والحــرارة في الــصــدر

ولله مــع عــيــني جــوداً كــأنــه

مــزيــد هــوى من سلك نــاظمــه يجري

ونتـرك ما بعـد هذين البيتـين لما فيهـما من مساس بكـرامة الرسول والمسلمين .

وإليك فاستمع لحمزة بعدما رجـع من يوم بـدر وقد عـلاه الظفر

أرقــت وشــفــنى لــيــل طــويــل

وهــم بــين أضــلاعــي دخــيــل[1]

لــعــادلــة تــؤنــبــني ســنــاهــا

وبــعض الــعــاذلات لهــا ســبــيــل

فــلامــة وهــي مــشــفــقــة نــصــوح

---

(١) أنظر المناقب والمثالب للقاضي الشافعي .

وذات النصح مشفقة عذول
تلومك أن رأت بجيوب بدر
ملاحم بينهن دم يسيل
ملاحم من عشيرتها أصيبت
على ظلم وليس لها تبول
هموا ظلموا الرسول وكذبوه
لذاك الظلم متخم وبيل(٢)
وقد قلنا وادعونا إليهم
فلم ينفعهم في ذاك قيل
بمكة إذ طغوا وبغوا علينا
وللأيام دائلة تدول
فساروا عامدين لبطن بدر
تقاد مع المخزمة الخيول(٣)
حلفنا حلفة وجبت علينا
بها من هاشم ثقة كفيل
نفارق أحمداً أو تتركوه
فيحلم فيه جهلته الجهول
فلاقوا جمعنا جهة جهاراً

---

(٢) المتخم : ابتداء الشيء إلى نهايته : والوبيل الأرض الجرداء التي لا نبت فيها .
(٣) المخزمة : الإبل التي تقاد بالخزام وهو حبل يوضع في أنف البعير فيقاد به

كـأسـد الغـاب يقـدمـنـا الـرسـول
فـضـاربـنـاهـم حـتـى تـولـوا
وعـتـبـة تحـت رايـتـنـا قـتـيـل
وشـيـبـة في مـكـر قـد بـتـتـنـا
وفـوق جـبـيـنـه عـضـب صـقـيـل
بـأمـر الله والـرحمـان يـقضي
بمـا يهـوى ولـيس لـه بـديـل
فـعـز عـلى الـعـشـيـرة مـا أتـاهـا
بمـكـة إذ عـلا بهـم الـعـويـل

وقال أيضاً في أمر الصحيفة وما أجمع عليه القرشيون يوم الشعب .

ألا يـا لـقـومي لـلأمـور الـعجـائـب
وصـرف زمـان بـالأحـبـة ذاهـب(١)
وأقـوال أقـوام أضـل حـلومـهـم
مـع البغى والعـدوان عـالي الضـرايب
يقـولـون إنـا سـوف نسخى بـأحمـد
لـقـول سـفـيـه أو إشـارة غـايـب
وقـد جـاء بـالحـق الجـلي واثـبـتـت
رسـائـل صـدق وحيهـا غـير كـاذب

---

(١) راجع المناقب والمثالب

رسائل من ذي قوة يصطفى بها
عباداً ذوي حق على الله واجب
فإن تقبلوا ما جاء من عند ربكم
إليكم وقول المرسلين الأطايب
يكن لكم خيراً لكم من حرابنا
وبئس خلال الحرب حرب الأقارب
فلا تحسبونا مسلمين محمداً
لكم ما حدت عيسى رفول براكب
له رحم فينا يعز جواره
فمن دونه ضرب الطلي والحواجب
وجرثومة من هاشم عرفت له
كرام مساعيها لوى بن غالب
فجهلا ولما تشغب الأرض بيننا
بشنعاء تغنى كل أس ورائب
تفرق شعب الحي بعد اجتماعة
قبائل تبدى عن حرام الكواعب
ونذلل أقواماً وكانوا أعزة
أصابهم دهر كثير النوائب

وقال يرثي أخاه أبا طالب ويذكر النبي محمداً وتألب قريش عليه وتكذيبهم له وما يكيدون للرسول بعده ثم يعود فيذم قريشاً فيقول :

أرقت لنوح آخر الليل غردا
يعين الحليم والرئيس المسددا
أبا طالب مأوى المكارم والندى
وذا الحلم لا خلفاً ولم يك قعددا
أخالك جلى ثلمة ستسدها
بنو هاشم ان تستباح وتضهدا
فأمست قريش يفرحون لفقده
ولست ترى حياً لشيء مخلدا
وخابت أمور زينتها حلومها
لهم سوف توردهم من الغي موردا(١)
يرجون تكذيب النبي وقتله
وان يفترى بهتاً عليه ويجحدا
كذبتم وبيت الله حتى نذيقكم
صدور العوالي والصفيح المهندا
ويبدو منا منظر ذو كريهة
إذا ما تسربلنا الحديد المسردا
فأما تبيدونا وأما نبيدكم
وأما تروا سلم العشيرة أرشدا

(١) هكذا قد جاء هذا البيت ولو حركنا الفعل بالرفع وهو توردهم لحصل في البيت زحاف غير مغتفر في تفاعيل الشعر وأوزانه فأبقيناه على ما في كتاب المناقب والمثالب .

وإلا فـإن الحـي دون محـمـد
بنـو هـاشـم خـير الـبـريـة محتـداً
وان لـه مـنـكـم مـن الله نـاصر
ولـسـت بـلاق صـاحـب الله أوحـدا
نـبـي أتى مـن كـل حـين بـخـطـة
وسـمـاه ربي في الـكـتـاب محـمـدا
أغـر كـأن الـبـدر سـنـة وجـهـه
جـلا الـغـيم عنـه ضـوئـه فـتـوقـدا
أمـين عـلى مـا اسـتـودع الله قـلبـه
وان قـال قـولاً كـان فـيـه مـسـددا

وله وقد أعلن إسلامه .

حمـدت الله حـين هـدى فـؤاي
إلى الإسـلام والـديـن الحـنـيـف
لـديـن جـاء مـن رب عـزيـز
خـبـير بـالـعـبـاد بهـم لـطـيـف
إذا تـلـيـت رسـائـله عـلـيـنـا
تحـدر دمـع ذي الـلـب الحـصـيـف
رسـائـل جـاء أحمـد مـن هـداهـا

بـآيـات مـبـيـنـة الحـروف
فـإن المـصـطفـى فـيـنـا مـطاع
فـلا تخشـوه بـالـقـول الـعـنـيـف[1]
فـلا والله نـسـلمـه لـقـوم
ولمـا نـقض فـيـهـم بـالـسـيـوف

وله أراجيز كثيرة أعرضنا عن إثباتها لعدم بيان خط الناسخ لكتاب المناقب والمثالب وكثرة الخطأ .

فإذا كانت هذه القصائد التي ذكرناها كلها لسيدنا حمزة فقد أصبنا ما كنا نتطلبه ونرومه فقد لمسنا روحاً أدبية شاعرة منبعثة عن عقيدة راسخة ونفس عالية تدور مع الحق أينما دار .

روح شاعر ينطق عن صميم الواقع ، فلم يستعن بخياله ويستوحي فكرته عسى أن تلهمه معنى بيت خيالي يغني به الأواخر ويترنم به الحواضر .

لم يسلك حمزة جانب الخيال في شعره ولم يضع قرطاسه إلى جنبه ماسكاً يراعه بيمينه ليفوز بشعره ويخلد به وإنما قال ذلك عن دافع ديني ووازع إلهي دفعاً به إلى أن ينطق بالشعر ويقوله حينما وجد قوماً قد ضلوا الطريق وسلكوا أرضاً وعرة في ليل

(١) وذكر في تاريخ الخميس ج ٢ في ترجمة حمزة ما هكذا (وأحمد مصطفى فينا مطاع)

بهيم دامس قد صدهم جهلهم من أن يتبعوا الرسول .

هـذا جـل مـا تسنى لي جمعـه من شعـر ينسب لحمـزة ومـا اطلعت عـلى غـير مـا كتبتـه من شعـره رغم بحثي المتـواصـل وتنقيبي أثناء كتابتي عنه

وكفانا أن نعرف حمزة بهذه المقاطيع شاعـراً التصقت روحه بروح كل شـاعر حـر كما أن بـطولته ألفت بينـه وبين كـل بطل مجاهد وقائد مخلص عرف واجبه وصـلاح أمته فسـار على ضـوء ذلك الواجب الذي ألقى على عاتقه . وكـما أن زعامتـه ربطت بينه وبين كل زعيم غيور شهم فراح ينظره بنـظرة ساميـة ملؤها أعظام وتجله

وكما أن صلاحه وتقاه حبباه لكل تقي مصلح يسعى لانقاذ شعبه وأمته من مخالب الشقوة والجهالة ليريه منار الحق وليرفعـه إلى أوج الفضيلة ومـطاردة الرذائـل والموبقـات وليس ذلـك من سيد قريش بعجيب .

بطولتـه

إذا فكـرنـا جليـاً وانعمنـا النـظر في الحـروب السـالفـة في العصور الأولى البائدة وفي قادتها الأشاوس الذين احرزوا الحـد الأعـلى من القوة والبسـالـة والاقـدام عـلى التضحيـة في سبيـل النخـوة أو العـزة والـذود عن الكـرامـة ، وان لم تكن تلك

الأسباب هي التي أججت لظى الحرب وأطلت تلك الدماء فهناك شيئان آخران وهما أكثر من كل هذه العوامل التي تؤدي إلى سفك الدماء والهوان بالنفوس إلا وهما السلب والنهب اللذان هما رأس كل خطيئة في العصر الجاهلي الذاهب .

فإذا قسنا تلك الحروب الغابرة بالحروب التي أدركنا زمانها ورأينا ما فيها من عدة وعديد وقوى متكافئة ؛ ومعدات حربية وذخائر ؛ لوجدنا البون شاسعاً والفرق بعيداً لا يقاس هذا بذاك ولا يوازن ذاك بهذا ؛ فإن لكل حرب عصر وحكم وسياسة وسلاح فالعصر الجاهلي لم يعرف الحكم والقانون والرضوخ لهما إذ أن قانونه عدم القانون وحكمه الإستبداد بالرأي والفكر إذ كل أمة لم تعتنق مبدأ يحرم عليها أشياء ويحلل أشياء ويبقى ذلك في أعناقها طوقاً ثابتاً لا يمكن حله وفصمه فلا بد لها من أن تسير على غرار ذلك المبدء والدين ويكون لها حكماً ودستوراً تسير على نهجه وتقتفى أثره ، وان كانت عارية عن هذين العاملين فلا شك أنها تبقى فوضوية منحلة وتكون ضعيفة غاية الضعف لا يمكنها أن تجتمع على قول وتتفق على رأي إذ أن رابط الإجتماع عندها معدوم فهي مهما عاشت فلا تترقى من درجة الضعف المنهك إلى درجة القوة والسلطان .

فمهما عاش العربي في بطولته وشجاعته وقبيله فهو ضعيف عند الأمم التي اكتنفته واحاطة به لأنها قد اعتنقت أديان ومذاهب

وان لم تكن على الوجه الصحيح بأحكامها وقوانينها ولكنها جمعتهم على كلمة واحدة ورأي واحد بواسطة ذلك القانون الديني الذي قبلوه وارتضوه بأن يكون دستوراً يجمعهم ويدني بعضاً لبعض ؛ والعربي في هذا الأنحلال والفوضى السائدة عليه قوي في حروبه ذائع الصيت في ميادين القتال والحروب

فالحرب في العصر الجاهلي وبعد الإنقضاء عليه لم تعتمد على شيء من السلاح والقوة أكثر من السيف والرمح والنشاب ؛ والمنجنيق - إذا تطرفت الحرب واشتدت أزمتها -

ولم يستعمل سلاح المنجنيق إلا عند نفر قليل لا يكاد أن يبين في قبال هذا المجموع ولم يستعمله ويحتفظ به غير الملوك والأمراء . وما كانت الحرب إلا التقاء اللحم باللحم والقرن بالقرن ولم يكن بينهما من المسافة بأبعد من السيف وامتداد الرمح فإن بعد فلا يكون بأبعد من رمي القوس وعندها يلتحم القتال ، وينهزم الجبان القعدد ، ويغامر البطل بنفسه ، ويهبها طعمة لحد السيف ونصل الرمح ، فعندها يهوى أحد القرنين إلى الأرض يخور بدمائه قتيلاً أو جريحاً ويؤسر من خلع قلبه وخارت قواه .

فيبين القعدد الجبان الذي أغلى الحياة فأرخصته ، ويعرف البطل المجاهد الذي أرخص الحياة فاغلته .

فيا ترى كيف كان يعد الحمزة من هذين الفريقين فهاك قصة من بطولته لتعرف البطولة التي احتلت قبله وتمركزت به لقد كان بطلنا في طليعة أولئك الذين ارخصوا نفوسهم في لهوات الحرب حينما كان في العهد الجاهلي والعصر الفوضوي وكان لا يركن إلا إلى السجود للاتً والعزى ولم يعرف عنهما شيئاً ولما أن بزغ فجر الإسلام وتلألأ في مهامة الجزيرة وبيدها ثاب إلى رشده ورجع إلى محاكمة العقل والتقليد القبلي الأعمى فمال إلى عالم العقل ورفض التقاليد الوطنية والعادات القومية التي قضت على ذوي النهي والتفكير ؛ فخاض غمرات الحروب وجرد سيفه مناضلاً عن الرسول الأعظم في سبيل الدين الجديد وسبيل الحق والذب عن المبدء ، زج نفسه في لهوات الحرب غير ميال بكثرة العدة والعديد ولا متهيب من لمعان السيوف وظلام القتام الذي تثيره الخيل بسنابكها وان روحه السبعية وقلبه الحديدي لا يزداد إلا قوة وجلادة لم تشاهدها قومه واكفاؤه من قريش وقريش أبطال العرب وشجعانها وما تلك الزيادة في القوى والنشاط إلا نتيجة عن تغير النفس بانقلاب سريع أثر فيها الأثر البليغ فطور حالتها وانمى فيها روح القوة والبسالة فألقت به في سوح الميادين ليناضل ويجاهد حسب ما يستطيع وليضحي بنفسه في سبيل مبدئه وعقيدته ، ولما رأى النبي توقد روح عمه والإخلاص في العمل دعاه إليه وقد عقد له لواءَ أبيضاً في سرية لا تنوف على

الثلاثين رجلاً ؛ ولا تقل عنها ، وأمره بالمسير في هؤلاء النفر كي يعترض عير اعدائه قريش وكانوا قد أرسلوا بعيرهم أبا جهل للتجارة إلى الشام ، وقد صحبه ثلثمائة رجلاً منهم وكلهم من صناديد قريش وأبطالها وقد دججوا بالسلاح واستتروا بالحديد ، سار الحمزة واعترض عير أبي جهل ؛ فلم ترهبه قلة جيشه وهزاله ، وكثرة جيش أبي جهل وقواه ولم يخش بطولة قومه القرشيين واحلافهم ؛ وهوابنهم ؛ واعرف الناس بهم وبمواقفهم في الهيجاء فوقف هنيأة حتى إذا جمع شتاتة وشجع قومه بقوله وما النصر إلا من عند الله فاعطى اللواء إلى بي مرثد ، وهم بالهجوم على عير أبي جهل وشب نار الحرب وتطاير شررها ليسلب العير ويقتل حراسه الأبطال من قومه والأقران من أهل وطنه الأسود الضواري لولا أن يعترضهم مجدي بن عمر الجهني وكان ذا عقل ومعروف يحب للناس السلامة والخير ويكره الدماء فانكب على كف الحمزة يقبلها ، والتمس منه الكف والأعراض عنهم فأجابه الحمزة إلى ذلك فافترقوا ولم يقع بينهم أي حادث وتلك أول غزوة من غزوات النبي وأول لواء يعقده في الإسلام لنهب عير قريش وذلها كما حدث بذلك التاريخ

فأي بطل شجاع يقدم هذا الاقدام ويقف ذلك الموقف على قلة في العدد وهزال في العديد غير فخر هاشم وفارس لوى وقائد محمد (ص) .

فقد كان حمزة على جانب عظيم من البطولة والشجاعة لا يقاس بسيف من أسياف قريش ولا يقارن ببطل من أبطال بني هاشم لولا سيف ابن أخيه الإمام علي بن أبي طالب (ع) إذ أنه كان يعطي السيف حقه فكان مثال قول القائل إذا اعتلى قد وإذا اعترض قط فحمزة لا يعترف بالبطولة لأحد سوى علي (ع) إذ كان يقول لعلي (ع) وقد دارت رحى الحرب (يا علي خذ اليمين ودع لي اليسار وللمسلمين القلب) فكانا يجولان في الميدان فتارة في القلب وأخرى في اليمين وطوراً في الشمال ؛ وقد قاتل بطلنا يوم بدر مقاتلة الأبطال لا يرهب الموت ولا يخاف المنية حتى شهد له أعداؤه وخصماؤه في ذلك اليوم) .

وقد حدثنا بذلك التاريخ عن أعدى عدو لدينه ومحارب له حدث ابن إسحاق عن عبد الواحد بن عون عن سعيد عن إبراهيم عن أبيه عبد الرحمان بن عوف قال قال أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما فقال لي يا عبد الإله وكان يسميه بعد إسلامه واستبدال اسمه عبد عمر وتسميته بعبد الرحمن « من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره » .

عبد الرحمان : الحمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله .

أمية : بخ بخ وانه هو ذلك الـذي فعل بنـا الأعيل فـوالله لقـد أرعبنا وأكـثر فينا القتـل ؛ وما فـرق الجمع وهـزم الجيش سواه وليس في الصفين رجل أقوى منه قلباً وأصلب سـاعداً ؛ وأشد شكيمة ؛ وأكثر منه خبرة في الحرب

هـذا أمية بن خلف : وهـو رأس الكفر يؤدي شهـادته في رجل الإيمان والإنسانية الحمـزة بن عبد المطلب ؛ فقد كـان لحمزة بأس وقوة شهدت له بها أبطال قريش على كفرها وعنادها للمسلمـين وقد قـالوا كلمتهم في حمـزة وذلـك عنـدمـا تـظاهـر بإسلامه وأعلنه في نـوادي قريش وفي البيت فقـال المسلمون مـا عز الإسلام إلا بإسلام الحمزة ، وقال قريش قد فلت منا محمد بإسلام عمه الحمزة فـاحذروا بـطشه وسـطوته ؛ وقصـروا عن أذى ابن أخيه فإن فيه ثورة كثورة الأسد الغضبان .

لقـد هابت قـريش النبي محمداً وكفت عن أذاه خـوفـاً من بـأس عمه الأسـد وبطشـه وقد استـولى الخوف عـلى تجار مكـة الـذين يسافـرون بتجارتهم إلى الشـام ؛ وقد قص عليهم أبـو جهل نبأ الحـادث لولا أن يتـداركهم الجهني فيحفظ أموالهم من النهب والسلب ويخلصهم من بأس حمزة ولهيب سيفه فصاروا لا يقصدون الشام إلا من طريق بعيدة في قـوة واستعداد أضعـاف ما كانوا يرسلون من المحافظين على أموالهم التجارية .

وقد رجع حمزة إلى ابن أخيه في سريته التي قادها إلى سيف

البحر وكلها من المهاجرين عن وطنه وعشيرته مفتخراً بحمله اللواء الذي عقده له رسول الله فأنشأ مفتخراً .

بأمر رسول الله أول خافق
عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
لواء لديه النصر من ذي كرامة
إله عزيز فعله أفضل الفعل

وقد مرت هذه القصيدة في باب شاعريته فلا حاجة لأعادتها بهذا الباب .

لقد افتخر الحمزة بإعطائه وحمله أول لواء خفق في الإسلام راجياً أن يتم على يده الفتح ليربح جنده من الغنائم التي ستكون قوة لجيشه الهزيل الجائع ، وضعفاً مالياً يلحق عدوه اللدود ، وهكذا ظل مرباً لكل هيعة وصيحة ، مستصرخاً للنصر ، مطارداً للظلم ، مغامراً بنفسه في خوض المعارك الدامية وملبياً لدعوة ابن أخيه النبي الكريم .

فدونك هذا الحادث الآخر الذي يزيدك بصيره وإطلاعاً ببطولته وإقدامه وبسالته ؛ فقد شاءت الظروف أن يبدو لنا فتى عبد المطلب حاملاً لواء الحق ثانية ذاباً عن حرمة الإسلام ؛ مدافعاً عن شرفه وعزه رامياً بنفسه في الهوات الحرب وغمراتها غير ضنين بها كما يحب ذلك التعدد الضنين الذي يحب البقاء ويفضل المقام مع المخدرات من النساء ولا يخرج للحروب

والمعـامع إلا عنـد تمـام الـظفـر والنصر وسكـون رحى الميـدان ليحصـل على القسمـة ويتلطف عليه بـالصـدقـة ممـا فضـل من الغنائم بعد التوزيع ، فلا يندى جبينـه من ذل السؤال وإهانـة العار .

شاءت الظروف أن ترينا إخلاصه وهجـومه في حصـار بني القينقاع حينما نقضوا عهد محمـد وخرجـوا عن الطاعـة وشروط الحلف فقـد احدثـوا ثورة داخليـة في يثرب حينـما رأوا الإسلام يزداد هيبة وسلطاناً ؛ وقد أنتشر اسمه في الجزيـرة ، وأخذت الوفود تتزاحم للحلف مع محمد والرواد تترى لكي ترى صـورة ذلك النبي وكراماته التي تناقلتها أمواج الأثير فألقتها في كل اذن وسمع فاشتـد حقد اليهـود على النبي وأصحـابه . وتـأججت نيـران الأضغان في صـدورهم فألهبت ضمـائرهم ، واحـرقتها فزاد غليانها كما يزداد غليان المرجل إذا ألقى من تحته الوقود فلم يقدروا على كبته في صدورهم ولم يستطيعوا حمله دون أن بـاحوا بـه يوم أن قـدمت امرأة من المسلمـين(*) إلى سـوق بني قينقـاع ومعهـا حلي تـريد صـوغهـا ، فجلست عنـد صـائـغ منهم ، فحـاول اليهـودي كشف قنـاعهـا لتبـدوا زينتهـا لهم ؛ فـأبت المسلمـة ذلك ، فقـام أحد اليهـود ؛ وعلق طـرف ثـوبهـا من

(*) تاريخ اليعقوبي ، السيرة لابن هشام ، وابن الأثير ؛ البحار ج ٦ للشيخ المجلسي .

خلف إلى ظهرها وهي لا تعلم بذلك ؛ فلما نهضت انكشفت سوأتها فلجوا بالضحك عليها فصاحت مستغيثة بالمسلمين مما جرى عليها ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ونهض اليهود على المسلم فقتلوه .

ولكن المرأة قد استمرت باستصراخها واستغاثتها فتكاثر المسلمون عليها فقصت خبرها عليهم فلم يبرحوا عن مواضعهم حتى تجمع المسلمون على اليهود وأرادوا الوقيعة بهم ؛ ولكنهم لم يفعلوا ذلك دون أن يأخذوا رأي النبي فسرعان ما اتصل نبأ الحادث ورن بأذن النبي فنهض وقد أعلن حربهم بعد أن طلب من اليهود أن يفكوا عن أذى المسلمين ، ويحفظوا ما كان بينهم من المعاهدات ورعي الذمام ؛ أو ينزل بهم ما لا تحمد عقباه ، فيمكن السيف من رقابهم ، ويبدد شملهم ، ولا يسمح لهم بالإقامة في يثرب .

لم يعتني اليهود بتهديد النبي ووعيده ؛ ولم يكن الجواب إلا الإستخفاف بمحمد (ص) والسخرية عليه وإلصاق العيب بدينه فراحوا يسخرون بالمسلمين من المهاجرين والأنصار ويضمرون لهم الشر ويتوعدونهم بالقتل والجلاء عن المدينة فعندها أمر النبي قومه من المهاجرين والأنصار في قتالهم ؛ فانحاز اليهود بجهة دورهم والتجأوا إلى قلاعهم وتحصنوا بها ؛ فنادى أحدهم يا محمد لا يغرنك انك لقيت

قـوماً لا علم لهم بـالحـرب فـاصبت منهم فـرصـة أنـا والله لأن حاربناك لتعلم انا نحن الناس(*)

فلما أن سمع النبي هذا النداء هتف بالمسلمين وحثهم على قتالهم ليطهـر يثرب منهم فـارتعد الحَمـزة وكان إلى جنب النبي وقـد عاودتـه ثورتـه النفسية التي لا تنفجـر إلا عـلى طلب الحق وضيـاعه وتفـاقم خطر البـاطل وانتشـاره ؛ فهجم عـلى بعض الحصـون وهو يهـدر كما يهـدر الأسد الهصـور ، فشاهـده يهود ذلـك الحصن فصاحـوا دونكم ابن عبد المـطلب ففي قتله قتل محمد وانهزام جيشه فوالله لئن دخل عليكم لا يبقى منكم أحداً فـاكثروا عليـه بالسهـام فأمـا يرجـع وإمـا يمـوت فتـألبـوا عليـه واجتمعـوا يرشقـونه بـالسهـام رميـة واحـدة ، فلم يتمكن من الإقتراب نحو الحصن ؛ والدنو إليـه ؛ فتراجـع لا خوفـاً ولا هرباً ولكنه ما أحب أن يمضي شهيداً بنبال اليهـود ويذهب دمـه جبـاراً على يـد الأم مخلوق واخبث عنصر يعوث بـالإنسانيـة ، ونـظمهـا الإجتمـاعيـة يفســد الأمن العـام ويسعى في الأرض فسـاداً ، فحوصر اليهـود في دورهم وقد آثـر الحمزة أن يمـوتوا جوعاً وعطشاً ولم تهرق من المسلمين قطرة دم واحدة فاستصوب رأيـه المسلمون فـظل مرابـطاً والمسلمون معـه وقد أخـذوا عـلى اليهود أشد الحصار طيلة خمسة عشر يوماً لا يدخل عليهم أحد

(*) سيرة ابن هشام البحار للمجلسي ج ٦

يأتيهم بطعام وشراب حتى نفد جميع ما عندهم من قوة ومتاع ؛ وقد أيس اليهود من المسلمين وطال مكثهم في حصونهم ودورهم وقد ندموا على ما بدر منهم فاخرجوا فئة منهم يأخذون الأمان لبقيتهم فجاؤوا محمداً بذلك فأجارهم وخضعوا لحكمه ونزلوا عند جميع رغباته وشروطه .

وبعد هذا الحادث مباشرة تجد فتى عبد المطلب يخرج حاملاً لواءه مستميتاً يطارد أبا سفيان وقومه حينما اجهزوا على رجل من الأنصار وقتلوه مع حليف له ، وحرقوا بيتين بالعريض ونخيلات ثم لاذوا بالفرار خشية من محمد وجنوده البواسل ، فجاء الرسول محمداً وأخبره بصنيع أبي سفيان ، فطلب النبي أبا سفيان في سرية من جيشه وإمامهم الحمزة بن عبد المطلب حتى انتهوا إلى قرقرة الكندر فلم يظفروا بأبي سفيان ومن معه .

وكان أبو سفيان من شدة خوفه قد ألقى جميع ما تحمله عيره من السويق ليخفف عن الإبل حتى تسرع بالسير فمر المسلمون فوجدوا السويق الذي ألقاه أبو سفيان فأخذوه فسميت هذه الغزوة بغزوة السويق .

كل هذه الغزوات لم تعرفنا بحمزة كل المعرفة ولم تعطنا عن بسالته وإقدامه الشيء الوافي الذي ننتفع به ونسجله له في سجل حياته ولكن غزوة بدر وأحد عرفتنا ببطولة حمزة

وشجاعته ، وإخلاصه إلى النبي ؛ واعطتنا صورة من حياته الجهادية التي قضاها في سوح الحرب ؛ فقد عرفنا حمزة في هذين المعركتين أكثر مما عرفناه في الشام وفي مكة ، في يثرب أيام يقطع الطريق ينتظر عير قريش وتجارة مكة ، ففي هذين المعركتين عرفنا الحمزة واكتشفنا عظم نفسه وشرفها ، إذ لم يكن جهاده جهاداً مشوباً بطمع المال أو رجاء لسطوة وسلطان أو ليتقرب عند سيده بنضاله ودفاعه إذ لم يحدثنا التاريخ أن ابن عبد المطلب تناول شيئاً مما ترك القتلى والمنهزمون ، فهو لم يسلب أحداً قط حينما يصرعه ولم يتناول متاعاً من أمتعة القتلى والمنهزمين كما يفعل ذلك بقية المسلمين بل كانت همته المسلوب لا السلب

لقد كان يجاهد عن عقيدة راسخة في الإسلام وإيمان ثابت وفكرة صحيحية إذ أنه عرف الإسلام بحقيقته واطلع على سرائره وحكمه فجاهد جهاداً عظيماً عن حكمة وبصيرة ودراية في الحقيقة لا كما يجاهد إخوانه من المسلمين فإنهم إذا جاهدوا إنما يجاهدون لامتثال قول النبي واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ولذلك نرى جهاد الحمزة خلاف جهاد أولئك الذين تقدموا بأنفسهم إلى الجهاد فكان كلما زج بنفسه وسط لهب الوغى وصخب المعامع لم يجد نفسه موفياً حقاً وجب عليه ، وتعلق في ذمته وألقى على عاتقه ؛ ولا بد له من أن يؤدي الحق اتمه ؛ ولا يوفي ذلك الذي فرض عليه إلا إذا رمى بنفسه

لهوة في فم تلك الرحى الطحون وخاض عباب ذلك البحر الهائج الذي تفجر عن عيون الدماء الحمر من المعارك الدامية والوطيس الحامي ؛ عند ذلك ينال أحد الحسنيين ، فأما الحياة وأما الممات وفي أيهما ظفر فهو الربح العظيم والعمل المشكور .

هكذا كانت عقيدته ثابتة في قلبه ، مخالطة لروحه ، لم تتغير ولم تتبدل والصلابة في العقيدة والثبات في الرأي كلاهما دليل على تبصره في المعارف الأحمدية ؛ وانه لم يلق بنفسه في نيران الحرب كما تلقي الفراشة بنفسها على لهب المصباح حباً له وجهالة بضرامة الذي يؤدي بها إلى العدم والفناء بعد الحريق

نعم أن الحمزة فتى عبد المطلب سار في هذه الحياة الجديدة والدين الإجتماعي الجديد سير ذي خبرة واجتهاد في العمل لا سير أعمي عيناه في عكازته إذ زلت عصاه تكور على رأسه ؛ أو سير الجندي المسخر بإرادة قائده لا يدري إلى أي جهة يسار به ويراد .

لقد عرف ما عرف الناس أنه ميت لا محالة ، وان لا بقاء ولا خلود في هذه الدنيا ؛ وان لكل نفس أجل في كتاب معلوم ، لا يتأخر ولا يتقدم ؛ فإن لم يكن اليوم ، وإلا فغداً ، فلماذا إذن ينتظر الموتة على الفراش ، يوم تلم به العلل والإسقام

ولماذا يفضل ذلك ويترك الميتة تحت ظلال السيوف وشجر القنا وهي ميتة الأبطال المغامرين ، لا موتة الجبناء الذين يتقاعسون عن نصرة دينهم وأوطانهم خيفة الموت ، وهم لا يستطيعون دفعه ، ولا يقدرون على رده ، علم أن كل هذا خيال محض ووهم باطل ناتج عن ضعف النفس وضعف الإرادة ، ولم يكن الحمزة بمستوى هؤلاء حتى يعتريه ما خالطهم ومازجهم من الضعفين . بل كان قوي الشكيمة بمنتهى القوة . صلب الرأي بغاية الصلابة . معتزاً بهما أي اعتزاز . لا يعول بأعماله على غير ساعده وحسامه الصقيل .

وإنا لنقرأ في صفحة حياته روحه ونفسه . فنراه لم يحسب الموت في سوح القتال . دفاعاً عن المبدء والعقيدة موتاً . وإنما يحسب الموت بهذا الشأن حياة والفناء بحب محمد بقاء

والزوال عن هذه الدار خلوداً ولم يحسب أيضاً أن الموت إزهاق الروح ومفارقتها البدن ولكنه كان يعتقد أن الروح باقية تنعم وتعذب وإن هذا الجسم لا بد وأن يطرء عليه التغير والإضمحلال ثم يعود يوم يحيي الله العظام وهي رميم . وإنما الموت الذي يخشاه فتى عبد المطلب الموت الأبدي الذي لم يسجل فيه للمرء تاريخاً حافلاً بالفضائل مليء بالذكريات الطيبة والمآثر الحسنة التي تنم عليه وتقص للناس عنه درساً بليغاً وذكراً حسناً .

لقد كان يعتقد أن اسمه ستردده الأجيال وتتناقله الرواة فتملأ به كتب سير الأبطال المنافحين . دون الحق ويعتقد أن القواد الذين يجيئون خلفه سيقتفون أثره ويخطون على أثره وخطاه وأن أرباب المبادىء والمعتقدات الشريفة وذو النهىٰ والهمم العالية والمآرب الجليلة سيسيرون على غرار نهجه ويقتدون به . وسيعجلون للحاق به مترسمين أثره وآثاره كي يبلغوا إلى ما بلغ هو لا سائمين ولا ضجرين من تعاقب المآسي وتنوع الأهوال التي سيعانونها في طريقهم . ويستسهلون المصاعب والعقبات التي عرقلت الوصول إلى الحقيقة والإطلاع عليها مؤمنين كل الإيمان انهم سينالون ما نال (أبو عمارة) بحسن اعتقاده .

وإنما المرء حديث بعده
فكن حديثاً حسناً لمن روى

فهنيئاً لك يا أبا عمارة لقد حزت الرقم الأعلى ببطولتك ونضالك وقد أحرزت ما كنت تروم وتتوخى فها هي ذي كتب التاريخ والسنة الرواة تردد اسمك وتتطلب آثارك وكلها لك السنة حمد وثناء وها هو ذا سجل حياتك ماثل بين أيدينا نتصفح أخبارك ونروي آثارك ونفتش عن قلبك الطاهر وفكرك السامي وبطولتك الجبارة . ومآثرك الخالدة حتى صرت حديث النفس وسمرها الممتع .

ـ أطب نفساً يا أبا عمارة ـ فها هي ذي القواد وأرباب المبادىء الشريفة والهمم العالية يسيرون اليوم خلفك وعلى أثرك وغرار خطتك التي ضربت بها للناس المثل الأعلى في كل صفة من صفات الخير ولهم من سيرتك نبراس لا ينطفىء نوره . ولا يخبو مهما تعاقبت القرون وتطاولت الأيام .

ـ طب نفساً يا أبا عمارة ـ ونم هادىء البال ناعم الفكر في ضريحك المقدس وجسدك الفسيح بين الحور العين والولدان المخلدين فهلم وأطل علينا من عل وحدثنا فيما وجدت في طريقك إلى الفردوس الأعلى وما شاهدت فيه من مناظر طيبة تستوقف النظر وتدهش الفكر وتزيد بالحس والشعور حساً وشعوراً .

حدثنا عن محافل سمرك الممتع الذي تبتهج به النفس ويهفوا إليه الضمير وحفلات سهرك التي تغازل بها ما شئت وتشاء لتنعش روحك وتريح فكرك الذي ازعجه أمسك الدابر .

حدثنا كما كنت تحدث قومك وأحباك يوم كنت حول الكعبة وهم جلوس حولك ملتفين عليك كما تلتف الأضلاع على القلب مصغين لما تقول بكل شوق ولذة في صيدك وظفرك .

حدثنا عن أندادك ومناوئيك الذين تألبوا عليك واجمعوا

أمرهم على قتالك لنصرتك لابن أخيك الرسول الأعظم وعن مقامهم في الجحيم وكيف يستغيثون ولا يغاثون نادمين على ما بدر منهم أيام بدر وأحد يرددون قوله تعالى : ﴿ ربي ارجعوني لعلي أعمل صالحاً ﴾

أطل عليهم من عل واسخر بهم كما كانوا يسخرون فذلك يوم التغابن وقل لهم اخسئوا فيها اليوم ـ هذا جزاؤكم اليوم بما كنتم تعملون ثم حدثنا عن ذلك العالم الملائكي ، نحدثك عن عالمنا هذا ومالك فيه من ذكريات خلفتها لنا على ممر التاريخ من وراء العصور . وما لأعدائك ومناوئيك من آثام سودت جبين الدهر وصحائف التاريخ

فما زالت آثارك الجليلة ، وأعمالك المشكورة سمر مجالسنا نردد ذكريات الماضي من عصرك الجميل . التي ما زالت تثير فينا الحماس والإقدام والثبات فلا نمل ولا نسأم على تكرارها

هذه واقعة بدر وحادثة أحد يمليان حتى اليوم درساً تاريخياً جليلاً أفرغنا له قلوبنا لنحفظه سورة بعد سورة من البطولة الرائعة والتضحية التي ليس فوقها تضحية ولنرى صورة من صور حياتك أيها البطل المجاهد والقائد العظيم .

في بدر :

مـا بزغت شمس يـوم الجمعة لسبـع عشـرة ليلة خلت من شهر رمضان من العـام الأول من الهجرة ، إلا وتعـاهد جيش الرسول على الموت والثبات في ميدان هذه الحرب التي قادها أبو جهل وأتباعه من قريش .

تعاهدوا أن لا يفروا عن الحرب منهزمين تـاركين الـرسول وقومه مستسلماً بين أيدي الجهل والنفاق .

تعـاهدوا أن يقفـوا على الموت فإما النصر وأما الفنـاء ومـا النصر إلا من عند الله .

وانـك لو بحثت عن سر هـذا الحلف وتكـوينـه لـوجـدت القائم به والمكون له أبـا عمارة حيث جمـع المهاجـرين من وطنه وتعـاهد وإيـاهم أن يقفوا للرسـول ويستميتوا دونـه حتى ينشط الأنصـار في الذب دونـه فعاهـده على ذلـك المهـاجـرون وأولهم الإمام علي بن أبي طالب .

استعـد أبا عمـارة لنزال القـوم وحربهم فلبس لأمـة حربـه وامتـطى صهوة جـواده يريـد الكرة عـلى جيش قريش وأبـطالها ليشفى غليله ويـطفىء لهب قلبـه عسى أن يـدرك ثـأره من أمـة ولجت سبـل البغي والتنمـر في الحيـاة عـلى ابن أخيـه الهـادي الأمين .

وهنا وقد عقد النبي لوائه الأعظم وهو لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير وعقد لواء الخزرج مع الحباب بن المنذر وعقد لواءاً للأوس مع سعد بن معاذ ، وكان قريش قد عقدوا ثلاثة ألوية .

١ ـ لواء مع ابن عزيز .

٢ ـ لواء مع المنذر بن الحارث .

٣ ـ لواء مع طلحة بن أبي كلمة .

ولما شاهد أبو عمارة رايات قريش وقد قبضها الأبطال منهم تذكر وصايا أبي طالب إياه وحثه على نصرة الرسول والتفاني دونه فانشد متمثلاً قوله وهو يرتعد من بأسه

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد
وكن مظهراً للدين وفقت صابراً
وحط من أتى بالحق من عند ربه
بصدق وعزم لا تكن (حمز) كافرا
فقد سرني ان قلت انك مؤمن
فكن لرسول الله انك ناصرا[1]

---

(١) يكفي لمن قرأ هذه الأبيات أن يعرف بذلك إسلام أبي طالب وإيمانه بالرسول الأكرم .

وبـاد قـريـشـاً بـالـذي قـد رأيتـه
جهـاداً وقـل مـا كـان أحمـد سـاحـراً

مرت هذه الذكرى السارية أمـام حمزة فـذكرتـه أيام مجـده بظل أخيه وعـزه بين قـومه وهـا هو ذا الآن يتـأهب لقتال تلك الفئة التي جاءت باغية عليه تريد حربه وطعانـه ثم تصور أخـاه أبـا طالب وقـد نظره في هـذه الساعـة وهو يحـرضه عـلى نصرة النبي وشـاهد الأسـود بن عبد الأسـد المخزومي وقـد دنـا إلى حـوض بدر ليـرد منه فـاستقبله ابن عبد المـطلب فضربـه على رجله[٢] فقـطع ساقـه واتبعه بـأخرى فقتله : وكـان ذلك أول الحـرب فتقارب الجيشـان وقد خـرج عتبة وشيبـة والـوليـد من الصف ودعـوا محمداً للمبـارزة فخـرج لهم فتيـان من الأنصـار فكـره الـرسـول من أن يكـون أول قتـال لقي المسلمـون فيـه المشـركين في الأنصـار فأحب أن يكـون ذلك في آلـه وقومـه من المهاجرين فارجعهم إلى مصافهم وقال لهم خيراً .

ثم نادى عتبة (يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا) .

فنادى الرسول : يا بني هاشم قوموا فقاتلوا بحقكم الذي بعث الله بـه نبيكم إذ جـاءوا بباطلهم ليـطفئـوا نـور الله بأبصارهم .

---

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج ٢ والسيرة النبوية ج ٢

قام الحمزة ومعه علي بن أبي طالب (ع) وعبيدة[1] بن الحارث بن عبد المطلب فمشوا إليهم فقال عتبة : تكلموا نعرفكم فإن كنتم أكفائنا قاتلناكم .

الحمزة : أنا الحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله

عتبة كفؤ كريم ، وأنا أسد الأحلاف فمن هذا معك

الحمزة : هذا علي بن أبي طالب ؛ وهذا عبيدة بن الحارث .

عتبة : كفوءان كريمان

فحمل كل على صاحبه فاختلف عتبة وحمزة بضربتين فقتل

---

(١) عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن مناف بن قصي القرشي المطلبي ويكنى بأبي الحارث وأبي معاوية ، وكان أكبر من رسول الله بعشر سنين وقد حضر حلف الفضول وحرب الفجار ؛ ولما جاء الإسلام كان من السابقين له والمظهرين إسلامهم
وكان ممن حبس في الشعب وكان النبي يحبه ويحترمه لكبر سنه وقرابته وصدقه ووفائه ؛ وقد هاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل والحصين
وذكر المامغاني في رجاله أن النبي بعثه يوم ودان[1] بستين فارساً من المهاجرين وقد عقد له النبي لواءً وهو أول لواء عقد في الإسلام
والحق أن أول لواء عقد في الإسلام اللواء الأبيض الذي أعطاه إلى عمه الحمزة في حادث سيف البحر

حمزة عتبة وقيل أن الحمزة قتل شيبة وعلي قتل الوليد وأصاب عتبة رجل عبيدة فقطع الساق منها فحمل علي وحمزة على عتبة فقتلاه وأخذا عبيدة إلى الصف ومخ ساقه يسيل فقال عبيدة ألست شهيداً يا رسول الله فقال النبي وأي شهادة أعظم من ذي

عبيدة : لا أبالي بعد .

ولما تسابقا علي وحمزة على قتل عتبة هبط الوحي على النبي يقص عليه تسابق علي وعمه على قتل عتبة وذلك قوله عز من قائل .

(هذان خصمان اختصموا في ربهم[1])

وقال النبي هؤلاء الثلاثة يوم القيامة كواسطة القلادة في المؤمنين وأراد علياً وحمزة وعتيبة وهؤلاء الثلاثة كواسطة القلادة في الكفار وأراد عتبة وشيبة والوليد

وهكذا ظل بطلنا الحمزة يرتجز بأبيات أخيه ضارباً بسيفه كلما جندل قرماً من صناديد قريش صاح : خذها وأنا ابن عبد المطلب .

---

(١) ودان بفتح الواو وتشديد الدال قرية بين مكة والمدينة من نواحي القرع بينها وبين هرش ستة أميال وبين الأبواء ثمانية وهي قريبة من الجحفة وهي الغزوة المعروفة بالأبواء

(١) ذكر المفسرون أنها نزلت في علي وحمزة وعبيدة عندما برزوا إلى عتبة وشيبة والوليد

ارتاعت صفوف قريش وجبنت أبطالها وألقى الله عليهم الرعب فانهزموا لاوين أعنة الخيل يسابقون الريح بالفرار وقد أكثر منهم القتل والأسر يسانده الأبطال من قومه والصيد من الأنصار ؛ فلم تسمع منهم إلا التهليل والتكبير ولم تر إلا بريق السيوف ولمعانها .

ولم يدع سيف حمزة يوم بدر بيتاً من بيوت مكة إلا وتعالى فيه الصراخ وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) انه قال[1] : خرجت في أثر رجل من المشركين يوم بدر فإذا أنا بفارس من المشركين على كثيب رمل وسعد بن خيثمة وهما يقتتلان حتى قتل المشرك سعداً وكان المشرك قد أفرغ على نفسه الحديد ولم يبن منه سوى بصره ؛ وإذ رآني نادى هلم يا بن أبي طالب إلى البراز فعطفت عليه إلى البراز فانحط إليّ مقبلاً وكنت رجلاً قصيراً فانحططت راجعاً لكي ينزل إلي وكرهت أن يعلوني فقال اتقز يابن أبي طالب ، فقلت قريباً مفر ابن الشترا فلما استقرت قدماي وثبتتا أقبل نحوي فلما دنا مني ضربني بسيفه فالتقيته بالدرقة فرفع سيفه فلجح[2] فضربته على عاتقه وهو دارع ؛ فارتعش ولقد قط سيفي درعه فظننت أن سيفي سيقتله وإذ إبريق سيف من ورائي فطأطأت رأسي مخافة أن يقع

(١) انظر سيرة بن هشام

(٢) لجح ونشب السيف في غمده ولم يخرج منه

السيف على رأسي فخف رأسه بالبيضة وهو يقول : خذها وأنا ابن عبد المطلب فالتفت من ورائي فإذا هو عمي حمزة والمقتول طعمة بن عدي .

هكذا كانت بسالته وعزماتـه فقد غبـر يوم بـدر في صفوف قريش وولاها الدبر تعثر بأذيالها متـوخين النجـاة والسلامـة من سيفه وسيوف المسلمين ورجع حمزة وجنده بالنصر منتشين نشوة الظفر وقد جمد علق الدم على ساعده قال له يا عم حقاً إذا كنت أسد الله وأسد الرحمان بل أسد الرسول . ثم أمر فغسل الـدم عن سيفه وذراعيه ولمـا تم ذلك أخـذ بيده ويـد عليٍ وقـام يتفقد القتـلى من أصحابـه فوجـدهم لم ينقصوا إلا عـدداً يسيراً فـأمـر بدفنهم فحفرت لهم الأجـداث ودفنوا في المعـركة نفسهـا ؛ ثم أمر أن ترمى جثث المشركين في القليب .

انتهت معركة بدر ولم يخسر النبي فيها الحرب والسلب غير أربعة عشر رجلاً من جيشه ستة من المهاجرين وهم عبيـدة بن الحـارث بن عبـد المـطلب وعمـير بن أبي وقـاص ؛ وذو الشمـالـين ؛ وعـاقـل بن البكـير ومهجـع مـولى عمـر بن الخطاب ، وفهر بن صفوان بن البيضاء ؛ فهؤلاء الستـة من المهاجرين وأما أسماء القتلى من الأنصار فهم .

بشر بن عبد المنذر ؛ وسعـد بن خيثمة ؛ وحـارثة بن سـراقة ، وعـوف بن عفراء ، معـوذ بن عفـر أو عمـير بن الحمام ، يزيد بن الحارث رافع بن المعلى .

وما قتل من المشركين فسبعون رجلاً ثلاثة عشر رجلاً قتلوا بسيف الحمزة بن عبد المطلب والباقون بسيوف المسلمين .

هـذه صورة من بـطولتـه وأحب أن أريـك صـورة أخـرى تخبرك عن نفسية حمزة بعد هذا الحادث الذي أنبأك عن بـطولته وبسـالته في سـوح القتال أحب أن أذكـر لك طـرفاً من قيـادتـه السرايا التي قادها لتعرف كيف كان ذلك القائد يسير جنده على نظام خاص وكيف كان يضع الخـطط ، ولا يحمل في نفسـه ما يحمله القادة والأمراء .

قيادته وسراياه :

لا بد للقائد من خطط يرسمها قبل أن يباشر الحرب ليعود مكللاً بـالظفـر والنجاح ؛ وليكـون على بصيـرة واستعـداد ، حتى يرجع إلى وطنه الذي دافع عنه وناضل رافع الرأس بـاسم الثغر منتشى بنشوة الظفر والإستيلاء على خصمه وعدوه .

ولا بد للقائد أن يستند على جيش مخلص محب لوطنه معتز بقومه كما يعتز الطفل بثدي أمه الرؤوم .

وإذا فقد القائد أحد هاتين الحـالتين فـلا شك أن مصيـره إلى الخيبـة والخسران ، وقـد كان قـائد جيش محمـد يـوم بـدر والقينقـاع وسيف البحر والسـويق مستنداً عـلى هذين الـركنين القـويين في الحـرب فظفـر وانتصر على قلة في العـدد وهـزال في العدة .

لقد أحكم خططه وأحرز الإخلاص من جيشه وبلاهم فما وجد إلا قلوباً ملتهبة وهمماً جبارة متوقدة تقذف بهم إلى حمم الحرب كما تقذف الطاحنة حبها في فم الرحى

فالقائد والجندي يتفجران حماساً وشعوراً وهمة لا يعدان لعدوهما ـ وان كثر ـ أي عداد ولا يحسبان له أي حساب مهما تفاقم خطره ، وتكاثر عديده .

وها هي ذي السرية الأولى تخرج بقيادته وعددها لا يزيد على الثلاثين جندياً كلهم من أهل مصره ووطنه من المهاجرين خرجوا قاصدين أبطال مكة وسلب ما لديهم من قوة وقاد سرية ثانية وقدرها ستين جندياً فسار إلى الموت غير خائف ولا متهيب ؛ ثم هبط عدد سريته إلى عشرين فارساً ثم ارتفع إلى الستين وذلك في غزوة الأبواء ثم ارتفع إلى المأتين وذلك تقدم محسوس مستمر في السرايا التي سيرها النبي تحت لواء عمه وكلهم من المهاجرين ولم يكن معه من المسلمين الأنصار أحد .

وكان يقطع ليله أيام قيادته ساهراً على تنمية جيشه الباسل وأخذ الحيطة من خطط يضعها أمامه ليسير عليها جنده فلم تكن القلة الأولى إختياراً له في إدارة شؤون جيشه حتى تظهر إلى النبي مقدرته وحسن سياسته ومعاملته لجنده .

ولم تكن السرية التي نافث على المأتين وهو جندي فيها خطأ

له وعدم اطمئنـان به . ولكنـه واحد من أمـة متحدة لا تـدافع ولا تناضل بشعور حب الظهور ونيل الزعامات بعدما علموا أن الإسـلام ديني يقضي على تلك الأنـانيات المـوهومـة وإنما العبـد والسيد والقائد والجندي سواء في نظره لا يفـرق بين هـذا وذاك إلا بالتقوى .

وهذه الزيادة المفاجئة التي حصلت في الجيش منوطة بزيادة المسلمـين الـذين تسللوا من مكـة مهـاجـرين خلف نبيهم إلى يثرب .

وكلما ازدادت الهجـرة إزداد عـدد جيش حمـزة لأنهم لا ينضوون إلا تحت لوائه ولم يخفق على رؤوسهم علم غيره .

فكان بمثابة جيش دوري يقطع فجاج يثرب يطارد الطغاة الظالمين الذين يؤمون الشام ويتحدون بعض المسلمـين كحادثـة غـزوة السويق فـالتزم حمـزة أن يحمي جانب البـر ويحـرسـه من أولئك الذين ضلوا وخسروا خسراناً .

وقد كره حمزة أن ينضوي تحت لوائه غير مهاجر ليرى قـومه الـذين كـرهـوا مكثهم فيهم فقـابلوهم بـأنـواع الأذى أذلاء خاسرين أنهم هم الأعزاء الأقوياء .

عطف وحنان

لا شك أننا واقفون أمام شخصية كبيرة لها منزلتها وميزتها الخاصة ومكانتها المرموقة بكل عين ، فلا يمكننا أن نتحدث عنها دون ما هي عليه فنغمط حقوقها أو نقول فيها أكثر ما هي فيه وخلفنا الحساب الشديد من قرائنا .

نعم لا يمكننا أن نقول هذا ولا ذاك فإنه الخروج عن القصد والإعتدال وأن الخروج عن جادة الحق مزلقة ترمى بسالكها إلى أبعد هوة عمياء مظلمة .

لا شك أن الجندي شديد القسوة بعيد عن العطف والحنان قريب إلى الطيش والغرور لأنه فتح عينه فوجد نفسه منجرفة بتيار الأهوال عائمة في غمرات الحرب فلا يعرف من الوجود غير ميادين القتال وإهراق الدماء ومصارعة الخصم والفتك به .

لا يكون الجندي جندياً وهو يحمل قلباً طرياً يتحسس ويتأثر بالصور المرعبة المحزنة أو يتأثر بالأجسام الشفافة اللطيفة

التي تثير الحب وتهز النفس بأسلاكها الكهربائية الجذابة

وكيف يتأثر من هذه الأسباب ، وقد أفنى عمره وأنفق لياليه ولم يشاهد في طريق حياته غير أهوال تعترض طريقه ومصاعب واقفة أمامه .

فإذا لم تكن حرب يساق لها ومعمعة يدعى إليها فلا يدعه القائد والآمر أن يختلط بالناس عامة خوف أن ينسى ما فطرت عليه نفسه من حب المغامرات ومصافحة الأهوال فيصبح وليست حياته حياة ولا وجوده وجوداً .

وما حياته إلا الضرب والطعان وإزهاق النفوس وإهراق الدماء وما وجوده غير خوض المعامع وميادين القتال ؛ وقد نشأ وشب ولم يشاهد غير هذه الصور التي يحسب انه خلق لأجلها ، وما خلق الجندي إلا لسفك الدماء والفتك في أبناء جنسه ما خلق ليحمل العطف والحنان والرحمة والرقة فتلك من شيم الكواعب الحسان .

هكذا يظل الجندي يعتقد هذا الإعتقاد فلا يحنو ولا يعطف ولا يعامل الناس إلا بما فطر ونشأ عليه ولكن من يدرس نفس الحمزة ويعرف أنه جندي وقائد لا يمكنه أن يرى فيه غير روح العطف والحنان لا كما يرى في أشباهه من الجند والقواد الذين دربوا جنودهم على الغلظة والقسوة .

فلم يكن سيد قريش وقائدها فظاً غليظاً ولم يكن جندياً

قاسياً بل كان قلبه مثال العطف ومستودع الحنان ، لم يعرف الشدة والقسوة إلا في ساحة الحرب وصخب الهيجاء حين يتطاير شررها فهناك يريهم بريق سيفه وينزل عليهم رعد صواعقه المحرقة .

فقد كان القائد العطوف والجندي المرح يتعهد اليتامى من أبناء المهاجرين والأنصار الذين فقدوا آبائهم يوم بدر فيعطف ويحنو عليهم ، ويرثي لحالتهم إذا رأى اليتم بادياً على صفحات وجوههم .

تثيره تلك الحالة وتؤلمه تلك الصفة فيتراجع كئيباً ويعود باسماً يحمل لهم في طرف ردائه ما يفرحهم ويسرهم حتى إذا ضحكوا ولعبوا قام عنهم وتركهم في لهوهم وفرحهم وينتقل إلى اليتيم الثاني فيفعل معه كما فعل مع الأول وهكذا كانت خلاله التي جبل عليها وفطر .

ولا أدري أكان الحمزة قد ذاق لوعة اليتم وجرت من عينيه دمعة الأسى فكوت خديه بحرارتها ؛ فلم يزل يتذكر تلك اللوعة وحرارة تلك الدموع كلما لاح له شبح اليتم وتجلت له ظاهرة من مظاهره .

كلا لم يذق لوعة اليتم ولم تجر من عينيه الدموع الساخنة سوى دمعة الحب الذي انعقد في قلب كل إنسان يود إنساناً مثله .

لم يبـك حمزة أبـاه عبد المـطلب لأنه تـركه صغيـراً لم يتعد العقـد الثاني من عمـره وإنما بكـاه بكـاء طفـل لم يعـرف سـوى فجيعة الموت التي غيبت أبـاه عن داره التي يشاهـده بها صبـاحاً ومساءً وما أحس باليتم وما عرف كيف هو لأنه عزيز وطنه وداره وزعيم قومه وأميرهم وليس الأمير يتيماً .

أجل فالله قد منحه الرحمة والعطف والحنان وخلق لـه عيناً تـرسل هـاطلات السحـاب رقة وحنـواً عـلى أبنـاء المهـاجـرين والأنصـار الذين أحسـوا باليتم ولم تنسـه بطولتـه وشجاعتـه وما جبل عليه وكيف وهي صفات عرضية ليست قائمة بالنفس ولا متمـركـزة فيهـا كـما تمـركـزت الإنسـانيـة الكـاملة في الإنسـان الكامل .

ولماذا لا يكون مثالاً للطهر والفضيلة وقد نشأ في مكـة وهو يسمع أحاديث جده هاشم ويرن صداها بأذنيـه تناقلهـا الألسن وترويها الرواة .

ولا ننس أن الحمزة مرباً ومعلم تتلى عليـه دروس أخلاقيـة تدنيه إلى فعل الخير وتبعده عن عالم الشر والأثام وما ذلك المربي إلا الرسول الأعظم الذي ما زال يوجهه وصحبه لو يفعل الخير والمجازات بالعفو والعطف عـلى الناس حتى في سـوح القتال إذ يقول لهم لا تجهزوا على جريح ولا تمثلوا بقتيل .

فقد ترك هذه الوصايا في قرارة نفسه وقفل عليها صنـدوق

صدره ، وهي دروس تمثل الإنسانية ، وقد تحلى بها في حياته في حال السلام والرخاء وتليت عليه وهو في ميادين القتال والحرب العوان .

هذه ظاهرة عن نفسيته عرفناها في حياته فأثبتناها هنا كما أثبتها التاريخ وأشار إليها حسان بن ثابت في شعره حينما راح ينعاه ويبكيه في قصيدته الحائية إذ يقول :

يا حمز لا والله لا أنساك ما صر اللقائح
لمناخ أيتام وأضياف وأرملة تلامح
ولما ينوب الدهر في حرب لحرب وهي لاقح

وهناك ظاهرة أخرى تعرب عن نفسيته إلا هي ظاهر الآباء .

اباء

لم تـزل الأمة العـربية محـافـظة عـلى كيـانها معتـزة بنفسهـا وشرفها تدافع عنه ما ثبتت قوائم سيوفها بأكفها ؛ لا تنام عـلى وتر ، ولا تصبر عـلى ضيم حتى تدرك ثـأرها ؛ وتنـال ما أبـتز منها .

فالعربي لم يخضع ولم يذل ، ولم يطلب من أحد كما يتطلبـه الغير ولم يتنازل عن حقوقه فيدعها ذاهبة ذهاب الرياح فيجلس كتيباً حاسراً صفر اليدين .

هذه حياة العرب فدنوك فادرس مـآثرهم وعـاداتهم فانـك ستجد تلك الصفات ظاهرة في حياتهم مشرقة في نفوسهم ولماذا لا يكون ابن عبد المطلب لذلك وهو العزيز في بيته ومحيطه وقد عاش قوي الشكيمـة صعب المراس حـديدي في مبـدئه وآرائـه ومعتقداته غير خاضع لقوانين الإستعمار ونـواميس الأوثان كـما خضع لها غيره .

وما منشأ ذلـك إلا ضعف التفكير وضعـة النفس وتجردهـا

عن الاباء الذي تمركز في نفوس الهاشميين الذين اعتنقوا الاباء في جميع أدوارهم وظروفهم الحلوة والمرة التي مرت عليهم فلم يعطوا بأيديهم اعطاء الذليل ولم يقروا إقرار العبيد كما قال سيدهم الحسين (ع) يوم الطف .

فالهاشمي بعيد عن هذه الحالات الشائنة التي لا يرضى بها كل حر غيور ممن عرف معنى الحياة وحسب لها كل حساب عدى حساب الذل والصغار .

هذه مواقف حمزة في مكة ابان دعوة النبي ودفاعه عنه شاهدة على آبائه وعزه .

وهذه مآثره في المدينة تنم عليه وخير دليل لمن يريد أن يترسم آثاره ويسلك طريقه ؛ فدونك حياته فإنك لا تشاهد إلا صحيفة بيضاء

تجد نفساً جبارة ما عرفت الذل وما استكانت له وما تحدثت أن تستكين .

عاش في وطنه عيشة أمير مبجل تخشى سطوته ويهاب سلطانه .

عاش مستقلاً برأيه غير راضخ لأحكام أحد سوى آله وذويه الذين فضلهم الله عليه بالعلم والتقوى واجتباهم وارتضاهم .

لم يـأنف من أن يتنازل ويخضـع بعد أن عـرف علو شـأنـه وعـظم قدره وبعـد تفكيـره ومـا فيـه من إصـلاح للبشر وحيـاة للمجتمع فآمن به كل الإيمان وفخر به كل الفخر .

فقـد شق لنفسه السبيـل القويم الـذي شقه آبـاؤه الصيـد فسلكتـه أعقابهم وأحفـادهم من بعد مقتفـين آثارهم سـالكـين طريق الكرامة والموت تحت ظلال السيوف .

صفاته

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال أعطى الله عزَّ وجلّ بني عبد المطلب سبعاً الفصاحة ، والصباحة ، والسماحة ، والشجاعة ؛ والحلم ؛ والعلم ، وحب النساء(١) .

فقد كان معظم هذه الصفات التي ذكرها ابن عباس متجمعة في نفس حمزة إذ كان خطيباً مفوهاً ولسان قومه إذا انبعث في قوله فما تخاله وهو متحدر في بيانه إلا سيلاً ينحدر من أعالي الجبال فلم يتلكأ في قوله ؛ ولا يتعلثم في بيانه .

وكان صبيح الوجه أحمر اللون أبيض الأسنان أشنبها أقنى الأنف ذا حاجبين غليظين وعينين سوداوين قد احترستا بجفنين مملوئين كحلاً .

وكان طويل القامة قوي البدن لا بالبطين البارز ولا الضعيف الهزيل باسم الثغر لموع الأسنان كثير الدعابة صريح

---

(١) انظر ذخائر العقبي إلى محب الدين الطبري ص ١٥

القول لين الخطاب لم تأخذه أهواء الزعامة وطيشها ولا قوة العشيرة وشرفها متواضعاً بنفسه محباً للخير يود أن يقتفي العالم أثره ويقتدي به .

سماحته :

كريم اليد يهب ما يملك لا يرجع سائلاً أو يطرد وافداً أنفق أموالاً جزيلة على ضعاف مكة وفقرائها كثير العطاء حسن النية وقد شاطر أخاه أبا طالب أيام أقعده الدهر في جل أمواله وقد مر عليك طرف من كرمه وسماحته .

أما شجاعته فقد مرت عليك ولم يبق لدينا إلا علمه وحلمه وحب النساء .

حلمه :

فلم نرد بالحلم الدهاء والسياسة التي يتكلفها بعض الناس ليتسلق بها إلى غاية ومآرب ؛ وإنما كان حلمه فطرياً ناشئاً وذاته لم يعرف الخداع والكذب وإنما كان يحلم على الضعفاء الذين حاولوا المساس بكرامته والإستهانة به حينما خرج مهاجراً عن مكة يوم الشعب ، فقد هتف خلفه صعاليك مكة وأرذالها وحاولوا المساس بكرامته فما قابلهم بشيء من ذلك لا خائفاً من أن تجتمع كلمة أهل مكة عليه وإنما كان غرضه أن لا يعاقب إلا دنياه والمساكين الذين سيرتهم السلطة واعمتهم الأموال الملقات

بين أكفهم فجرتهم إلى هذه المساويء .

ولـو رأى بين الصعـاليك سيـداً من سادات مكـة لما تـركه لاجاً بالهزء عليه دون أن يأخذ الذي فيه عيناه .

ولكنـه علم أن هؤلاء أبريـاء لا حـول لهم ولا سلطان وأن هناك يداً مشعوذة تحركهم ولساناً خبيثـاً يلقنهم ويلقي لهم ما لا يعرفونه ولا يألفونه ولو لم يكن لدينـا سوى هـذا الحادث لكفـانا دليلاً في حلمه وعقليته الجبارة .

علمه :

لم يكن حمزة عالماً من علماء الإسلام ومحدثاً من محـدثهم فلا يمكن أن يظهر ذاك والنبي بحيـز الوجـود وقيد الحيـاة ولم يعرف أحد من الصحابـة في عصر النبي انه عـالم ومحدث ، وقـد بان ذلـك بعد أن أختـار الله رسولـه إليه فـظهر الصحـابـة بعلمهم وأحاديثهم كل يقول حدثني رسـول الله وقال رسـول الله فظهـر العلماء من الصحـابـة في ذلــك الحـين ولم يكن حمــزة من تلك الجماعة إذ أنه توفي قبل الرسول في العام الثـاني من الهجرة نعم حدثنا الرواة أن حمزة حـدث مرة انـه قال : قـال النبي الزمـوا هذا الدعاء (اللهم أني[1] أسألك باسمك الأعظم ورضـوانك

---

(١) أخرج هذا الحديث صاحب أسـد الغابـة ورواه اليعقوبي وابن نـافع والطبراني وصاحب الأنوار المضيئة في ذكر أصحاب البرية .

الأكبر) فانه اسم من أسماء الله .

لا شـك أن حمزة صحب النبي وسمـع عنـه الشيء الكثـير وكـان يصغي لـه إذا تحـدث قلو عـد خـريجي مـدرسـة محمـد وتلامذته لكان الحمزة في طليعة أولئك المعدودين .

حبه للنساء :

فانك إذا كشفت الستار عن تاريخ حياته الزوجية فستجده محباً ولكنه غير مكثر منهن فقد تزوج بأمرأتين أحدهمـا فارقتـه في قيد الحياة وقد ماتت في عهده والثانية قد فارقها يـوم أحد وكـان يصبـوا إليهن إذا خلا من نـدمائـه وسماره فيقعـد مجلس سمـر وحـديث بين أهـل بيتـه وأزواجـه يقتـل وقتـه بينهن يـطارحهن ويطارحنه ألذ حديث وسمر .

أحد

لم تنته بدر حتى خلفت الأحقاد متأججة في نفوس المكيين ؛ فكان لذلك اليوم أثر سيء وألم ممض يحز في قلوبهم حينما عادوا إلى أم القرى مكللين بالخيبة والخسران مطأطئين رؤوسهم نادمين على اتباع أبي جهل وجهله الذي جر لهم المخازي بين القبائل ، وعصيانهم رأي عتبة وحكيم حينما أشارا عليهم بالرجوع إلى مكة والصفح عن قتال القوم والتعرض لهم .

فالغرور من أبي جهل وعصيانهم رأي مشيختهم هما السبب الذي أودى بقريش أن يقعا في هذه الفجائع وجلب المخازي والذل والهوان .

خسرت قريش الحرب فلا بد لكرة ثانية ونهوض لأخذ الثأر من هذه الزمرة التي سقتهم كأساً رنقاً من السم الذعاف فأخذ مفعوله في نفوسهم ؛ فراح أبو سفيان يؤلب ويجمع الناس على غزو المدينة .

وكيف لا يقوم أبو سفيان بجمع العرب ويباعدها ليغزو المسلمين في يثرب ، وقد أصبح شيخ قريش وزعيمها ؛ وقد خلا جو مكة من ساداتها أبناء عبد المطلب وشيوخ قريش .

خلا لأبي سفيان الجو وبدأ اسمه يظهر بين الأسماء ومكانته ترتفع على كل مكانة مؤملاً أن يخفى أثر هاشم ويعلو عبد المطلب فيضم إلى تجارته شرف الزعامة وعظمة الأمير ، فيصبح الحاكم المطاع والتاجر المرجو ان هو قتل جند محمد وآتى بمحمد أسيراً

هذه جل أغراض أبي سفيان وهذه أحلامه كانت تمر في ذهنه فيرقص لها طرباً ، وقد عزى بعض الكتّاب وأهل التاريخ هذه الحوادث بأنها كانت عن أغراض نفسية مصدرها العداء الهاشمي والأموي ولذلك نهض بها أبو سفيان وقومه .

وما كان أبو سفيان يحسب في تلك الساعة الحساب وإنما كان همه انتهاز الفرصة وخاف أن يتقاعس الناس عن الحرب وينكثوا عهوده فيحظى بالفشل والخسران فحرم البكاء على قتلى بدر وحبس النساء دموعهن حتى يبقين مكلومات متحسسات بألم المصيبة فيحرضن الرجال على القتال

أزفت الساعة وحان الوقت فما المانع يا أشراف قريش من أن نخرج طالبين وترنا مخرقين ثوب العار عنا الذي ألبسناه يوم القليب هذه سادتكم وزعمائكم قد رماها محمد في القليب

وأنتم في عقر دوركم تغازلون نسائكم وتشربون عقاركم

تجاوبت ملبية دعوة أبي سفيان هاتفة باسمه عاقدة آمالها عليه ؛ لبته بنو مخزوم طالبة ثأرها في سيدها أبي جهل وغيره من الذاهبين ضحية بدر ورهن القليب .

تنادي الناس لقتال يثرب ولقاء الهيجاء وتكاملت قوى قريش من عدة وعدة فكانت أربع طوائف .

١ ـ الأحابيش : وهم التجار وأرباب المصانع والبضائع الذين يكونون جيش مكة الأهلي والذين يهمهم العمل والتجارة فإن محمداً قطع عليهم سبل العيش والمواد الغذائية

٢ ـ المتطوعون من أبناء مكة وصناديدها الذين التفوا حول أبي سفيان وهم بنو أمية وبعض القرشيين وزمرة من بني هاشم وقد أخرجوا للحرب مكرهين

٣ ـ بنو كنانة : وهم أحلاف قريش .

٤ ـ قبائل تهامة : وهم أحلاف قريش أيضاً

سارت هذه الفرق متجهة نحو يثرب تردد أناشيد الحماس ؛ وقد تقدمهم أبو سفيان وأعمامه من بني أمية وقد مضى على واقعة بدر سنة وثلاثة أشهر .

سار في عدد لا يقل عن ثلاثة آلاف مقاتل من بينهم سبعمائة دارع قد ملكوا عدداً ضخماً من الخيل والإبل والسلاح

فلم يهدء قلب أبي سفيان مما خالطه من الرعب والفزع ، وشك في ثبات هذا العدد أمام جند محمد وثباتهم لما شاهد منهم التفاني والإطاعة .

شك في قدرة جنده على الثبات للقاء العدو فأخرج طائفة من النساء تشجع القوم وتذكرهم بالقتلى وفي طليعتهن هند[1] بنت عتبة زوج أبي سفيان وقد قتل أبوها عتبة وعمها شيبة وأخوها الوليد وابنها حنضلة يوم بدر بسيوف بني هاشم بين علي وحمزة ولم يكن مثلها موتور في جيش أبي سفيان وقد أمر أبو سفيان النسوة أن ينشدن نشيداً يثير الهمم ويزيد الحماس وأمرهن أن تأخذ كل واحدة منهن مكحلة ومروداً لمن يرونه يريد الهزيمة والفرار .

---

(١) هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية كانت امرأة لها من الأخبار ما لها في الجاهلية ، وكانت أشد الناس حقداً على النبي وحمزة وعلي إذ فجعها القوم بأبيها وعمها وأخيها وولدها حنظلة كل ذلك في يوم بدر وقد نذرت في يوم أحد أن تمثل بالقتلى فبرت نذرها ومثلت بحمزة وقد قطعت أذنيه وجدعت أنفه وشقت بطنه واستخرجت كبده ولاكتها بين أسنانها فلم تستطع مضغها فلفظتها ، ولما فتح النبي مكة وأسلم أبو سفيان تأخرت عن الإسلام حتى بعد حين خائفة على نفسها من أن يلقي القبض عليها النبي فينزل بها العقاب . فجاءت وأسلمت مع من أسلمن من النساء فأخذ النبي عليهن شروطاً في ضمن إسلامهن على أن لا يسرقن ولا يأتين

فـما هو نشيـد هذه الـطائفة من النسـاء في ميـادين الحـرب وسوح القتال أيذكرن الجيش بحرب محمد وبسالة جيشـه ؟ أم بقتله صناديد العرب وفرسان قريش ورميهم في القليب .

كلا لا هذا ولا ذاك لم يرد منهن أن يذكرن محمداً وينشـدن باسمه أو يعربن عن قوته وفتكه فإن هذه الذكريات تبعث فيهم إكبـار شخصيته وإعـظام جيشه فتـدب في النفـوس روح الجبن ويستولي عليها الخوف .

رحن يفكرن بنشيد جذاب رقيق يرتبط والعاطفة الـروحية ويدعوا إلى العار الأبدي أن هم فروا عن ساحة القتال ، وهذه الفكـرة بهذا النشيـد من أهم الـوسـائـل لبعث الهمم وتـوطـين النفوس على الموت مهما كان طعمه ولونه .

سـار جيش أبي سفيـان ولم يعلم أن عينـاً لمحمـد تسـير إلى جنبه تلتقط أخباره وأسراره لم تبرح عن مكـة ولم تعلن إسلامهـا لأمر سياسي إلا وهو التجسس إلى محمد ليكـون على بصيـرة من

= بفاحشة فاستنكرت هند قوله فقالت (أو تزني الحرة يا رسول الله) فتبسم العبـاس بن عبد المـطلب من استفهامهـا وأرادت بذلـك أن تبـرء نفسها ولمـا قال النبي ولا يقتلن أولادهن ؛ قـالت هند : قـد ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بـدر تشير إلى مقتـل ولدهـا حنظلة ولم يكن إسـلامها وإسـلام زوجها أبي سفيـان إلا فـراراً عن السيف وإنمـا بقيت عـلى مـا دانت عليـه وقـد عـاشت حتى زمن عمـر بن الخطاب وتوفيت في أواخر خلافته .

أمره وعلم واستعداد ، فقد تخلف العباس في مكة وكان رقيباً وعيناً وقد أرسل للنبي رسالة مسهبة وصف بها الحالة التي استعدت بها قريش وقد قبضها بعض من تظاهر بالإسلام وأبطن الكفر ثم خاف من صحبه فاسلمها النبي فجمع المسلمين وأخبرهم بقدوم قريش واستعدادها ليرى رأيهم

فاختلف المسلمون وراحوا شيعاً غير متفقين على رأي ؛ فقوم يرون البقاء في المدينة ، وآخرون يرون غيره .

أما النبي فكان يرى الصالح البقاء في المدينة لرؤيا رآها

قال اني رأيت بقراً فأولتها خيراً ؛ ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخل يدي في درع حصينة فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا فبشر مقام ، وان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها

ثم جاء جيش أبي سفيان فنزل أحداً يوم الأربعاء لأثني عشرة خلون من شوال ولما كان يوم الجمعة وقد فرغ النبي من الصلوة بقومه ، فاختلف المسلمون أشد الخلاف في الخطة التي ينبغي لهم أن يخطوها للقاء قريش فرأى النبي الخروج لرغبة بعض القوم الذين ألحفوا بالخروج ، وقد صاحوا أخرج بنا يا رسول الله إلى أعدائنا حتى لا يرون إنا جبنا عنهم وضعفنا وعلى رأس هذه الفئة الحمزة بن عبد المطلب وقومه من المهاجرين الذين فاتهم يوم بدر فقام حمزة وخرج خارج المدينة[1] وقال

(١) انظر الكلمات الثلاث ص ٨٣

والله لا أطعم الطعام ولا أشرب الشراب حتى أقاتلهم خارج المدينة ما ثبت سيفي في يميني فأجابهم النبي إلى طلبهم فدخل داره ولبس لأمة حربه فندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فأشدوا عليه بالبقاء فقال : لا ينبغي لنبي يلبس لأمة حربه فيضعها حتى يقاتل فخرج إلى أحد وانخزل ابن سلول في ثلثمائة رجل عن جيش المسلمين فواصل النبي سيره حتى وصل جبل أحد فجعله خلف ظهره ليتحصن به المسلمون من خلفهم واستقبلوا قريشاً في وجوههم وذلك بإشارة من علي وحمزة وقد قاما بتعبئة الجيش ووضع الخطط فجعلا عبد الله[1] بن جبير أميراً على الرماة وكان عددهم

---

(١) عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرء القيس ؛ ممن أبلى بلاءاً حسناً في إسلامه وجهاد اعداء الله حضر بدراً واحداً وقد شهد العقبة الثانية وفي يوم أحد جعله الإمام علي قائداً على الرماة بعد أن تشاور وعمه على من يضعونه فوقع الإختيار عليه ولما اشتبك القتال وهم جيش أبي سفيان بالفرار مندحراً خف الرماة الذين أوقفوا على الشعب للنهب والسلب وكسب الغنائم فصاح بهم عبد الله وخوفهم من غضب الله وغضب الرسول فلم ير منهم خيراً فوقف مرابطاً ولم يكن معه غير ثلاثة نفر ولما أن دهمهم خالد بجيشه ولم يفروا منه ولم يعطوه الشعب حتى تهاووا على الأرض مضرجين بدمائهم وقتل معهم عبد الله بمكانه ولما انتهى القتال تفقده النبي فوجده في مكانه الذي أوقفه به فأمر به فلف بثيابه وحفر له لحداً فدفنه به بعد أن صلى عليه وترحم له

خمسين رجلاً فقال له النبي أنضح عنا الخيل بالنبل . لا يأتونا من خلفنا إذا كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك .

واعطى اللواء إلى مصعب بن عمير وجعله أميراً على المشاة ، ولم يزد عدد الجيش في واقعة أحد على أكثر من سبعمائة محارب بين نابل وسياف ثم التحم الفريقان حتى بان الضعف في جيش قريش وهموا بالفرار ولم تبق إلا زمرة النساء اللاتي لعبن دورهن وبينهن هند وهن يضربن على الطبول وينشدن .

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل بتار

فلم يفلحن بأناشيدهن ولكنهن ارتجزن نشيداً آخراً .

أن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وجعلن يمشين بين المقاتلين وما يرين أحداً يهم بالهزيمة إلا لحقنه واعطينه المرود والمكحلة وقلن هاكها تكحل ودع السيف لمنصفية فإنك مثلنا

فلا يطيق العربي هضم هذه الكلمة فيعود مندفعاً لهول ما سمع من العار والإهانة التي سيلاقيها إذا حضر نوادي قريش فعادوا مستميتين وعاد جيش الرسول إلى بعض مراكزه وابن

عبد المطلب يهتف بقومه ويحرضهم على القتال وهو ينادي بشعار المسلمين(أمت أمت) وكلما جندل رجلاً هلل وكبر ، ولا تنس ما فعل بطلحة بن أبي طلحة وكان حامل لواء أهل مكة إذ اعتلى هامته بضربة ففلقها فكبر النبي وكبر معه المسلمون وقد روى صاحب الكلمات الثلاث السيد عبد الحسين شرف الدين أن حمزة ضرب عثمان بن أبي طلحة[1] بالسيف على كاهله فقطع كتفه حتى انتهى السيف إلى مئزره وقال (خذها وأنا ابن ساقي الحجيج) .

ولقد كان لأبي عمارة رجل يتطلبه ويتحين عليه الفرص ويتربص به الدوائر عسى ولعلما يظفر به من حيث لا يراه و! يكن له هم غير ذلك .

اعتزل وحشي الحرب وجلس عنها ناحية يفكر كيف يجد ضالته وكيف يظفر بأسد هذه الأجمة الكاسر .

ظل وحشي يبرى نصل حربته يعلل نفسه متمنياً أن تحرره من قيد العبودية ويغنم منها الوفر والثراء الذي أوعد به من قبل هند بنت عتبة بن ربيعة فقد وعدت وحشياً أن تنعم وتحسن عليه أن هو قتل أبا عمارة أو علياً "الذين فجعاها بأبيها وعمها وأخيها وولدها حنظلة

---

(١) انظر الكلمات الثلاث ص ٨٨ .

وحشي يتحدث :

قال الواقدي : كان وحشي عبداً لابنه الحارث بن عامر ؛ وقيل لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل فقالت له ابنة الحارث : إن أبي قتل يوم بدر وقد قتله الحمزة فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حر .

وحشي : ومن هم الثلاثة التي تعنين .

ابنة الحارث : محمد وعلي والحمزة بن عبد المطلب ؛ فإني لا أرى في القوم كفوأ لأبي غير هؤلاء وحمزة قاتل أبي .

وحشي : أما محمد فقد علمت اني لا أقدر عليه وإن أصحابه لن يسلموه وأما حمزة فوالله لو وجدته نائماً ما أيقظته من هيبته ، وأما علي بن أبي طالب فالتمسه

قال وحشي . حتى إذا كان يوم أحد أخذت أتربص لعلي في المواقف التي يظن اني التمسه فيها فطلع علي فرأيته رجلاً مرناً حذراً كثيراً الإلتفات فقلت : ما هذا بصاحبي الذي التمس

فقلت أطلب حمزة عندما يحمى الوطيس ثم ذكرت انه إذا غضب لا يبصر في عينيه من شدة الغضب وبينما أنا كذلك إذ طلع حمزة وهو يفري الناس بسيفه فرياً فكمنت له إلى صخرة وهو مكبس كثيباً فاعترض له سباع بن أم نمار وكانت أمه ختانة بمكة مولاة لشريف بن علاج الثقفي وكان سباع يكنى بأبي نيار

فقال له الحمزة أو أنت أيضاً يابن مقطعة البظور ممن يكثر علينا هلم إلي فاحتمله حتى إذا برقت قدماه رمى به فشحطه شحط الشاة ثم أقبل علي مكباً حين رآني فلما بلغ المسيل ووطيء على جرف فزلت قدمه فهززت حربتي حتى رضيت منها فدفعتها نحوه فوقعت في خاصرته من مثانته وأدركه جماعة من أصحابه فسمعتهم يقولون « يا أبا عمارة » فلا يجيب فقلت والله مات الرجل فذكرت هنداً وما وعدت به ثم انكشف عنه أصحابه حين أيقنوا بموته وهم لا يرونني فكررت عليه فشققت بطنه واستخرجت كبده وجئت بها إلى هند بنت عتبة فقلت ماذا لي أن قتلت قاتل أبيك .

هند : سلبي

وحشي : هذه كبد حمزة

قال وحشي فأخذتها من يدي فمضغتها بين أسنانها ولم تسغ بلعها فلفظتها ثم انها نزعت ثيابها وحليها واعتطنيه ثم قالت : إذا جئتِ مكة فلك عشرة دنانير وطلبت مني أن أريها مصرعه فأريتها مصرعه فقطعت مذاكيره وجدعت أنفه وقطعت أذنيه ثم جعلت ذلك مسكتين[1] ومعضدين وقلادة حتى قدمت بذلك مكة وقدمت بكبد حمزة معها

---

(١) المسكة الخلخال من الحلي .

قال وحشي : ثم علت هند على صخرة بعد التمثيل بحمزة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها منشدة .

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات شعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه وبكري
شفيت صدري وقضيت نذري شفيت وحشياً غليل صدري
فشكر وحشي علي عمري حتى ترم أعظمي في قبري

وكانت قد نذرت أنها إذا حضرت القتلى لتمثلن بهم فبرت نذرها بالتمثيل بحمزة وهو بغيتها ومنيتها التي تمني نفسها به .

وبعد تمثيل هند به يمر أبو سفيان على حمزة ويراه وقد مثلت به زوجته هند فلم يكتف بذلك دون أن أعرب عن مخابيء نفسه الخبيثة التي جبلت على الرذيلة وتباعدت عن حب الخير والفضيلة وتثور به عاطفته الهوجاء وعقليته السخيفة ، وقد كان إلى جنبه الحليس بن الحرث بن عبد مناف وهو يومئذ سيد الأحابيش فيضرب شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح وهو يقول (ذق عقعق)[1] فيفزع الحليس من هذه المأساة والوحشية التي لم تعرفها العرب وتأباها صعاليكها ، فلم يسبق لأحد من زعماء قريش إلى صنع هذا الصنيع المستنكر المستهجن إذ أن فرسان قريش تترفع من أن تمدا كفها على

(١) ومعناه العقوق وقطع الرحم وجفاه .

سلب القتلى وتجريدهم مهما كان القتيل ومهما كانت معداته الحربية الثمينة فكيف يرضى لنفسه أن يجهز على قتيل فيستخف به ويستهين بكرامته بعد القتل .

فقد ثقل على الحليس واستخف بأبي سفيان ونادى أيا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما .

أبو سفيان : ويحك أكتمها عني فإنها ذلة .

الحليس : لا كان ذلك حتى أحدث مشيخة قريش وفرسانها .

أبو سفيان : أغفرها لي فانها ذكرى يوم بدر وذكرى حنظلة .

الحليس : أما كفاك غيرك مما صنع به هذا الصنيع الفضيع

وحشي : وانها لزوجته هند .

يعرض الحليس عن صراخه ويستر أبا سفيان ولكن أبا سفيان لم ينته عن فعله الذي عيب به عليه واعتذر عنه فلم يند وجهه ولم يعرق جبينه حياءً من ارتكابه هذه الموبقة التي لا يقدم على فعلها شر مخلوق وهل هناك أكثر شراً من أبي سفيان ، فقد تصنع الندم وتكلف ذلك حذراً من أن يعاب عليه .

ولكنه عاود العمل مرة ثانية وذلك في عهد ابن عمه

عثمان بن عفان وقد اجتاز على قبره فركله برجله وقال : أية أبا عمارة أن الذي كنا نتعارك عليه بالأمس ها هو ذا اليوم بيد صبياننا

وقد شارك هنداً في التمثيل معاوية[1] بن المغيرة. بن أبي العاص بن أمية فقد شاركها بالخزاية والشنار إذ جدع أنفه ومثل به ، ولما انهزم قومه يوم أحد ظل وحده فلم يستطع أن يلحق بهم فدخل المدينة واستجار بعثمان بن عفان ليجيره وكان رسول الله (ص) قد أهدر دمه وأمر بطلبه فأخرجه عثمان وأتى به رسول الله فوهبه له واقسم النبي لئن وجده بعد ثلاثة أيام بالمدينة وما حولها ليقتلن فجهزه عثمان وسار في اليوم الرابع فقال رسول الله أن معاوية قريب فاطلبوه واقتلوه فخرج في طلبه زيد بن حارثة مولى رسول الله وعمار بن ياسر فأصاباه فقتلاه

وقيل وجده علي بن أبي طالب فخرج خلفه فظفر به وقتله ولا عجب أن يصدر من بني أمية فعل التمثيل والإشتراك مع هند في ذلك فإن له مع الحمزة ثأر لم يدركه لأن السلطة قد حالت دون ذلك فقد أطل الحمزة دم عفيف[2] بن أبي العاص

---

(١) انظر النزاع والتخاصم للشيخ تقي الدين المقريزي الشافعي
(٢) انظر نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٤٦٧

في الزمن الجاهلي وهو أول دم أهرقه بنو هاشم من بني أمية فبقي ذلك كامناً في نفس معاوية حتى يوم أحد فأراد أن يشفي غليله من بني هاشم .

ها هو ذا القتال قد انتهى وقد رجعت قريش رافعة ألوية النصر فيقوم النبي بدور التفتيش والتنقيب عن قتلى المسلمين في أحد ليواريهم في أجداثهم وليقيم عليهم الصلاة فيتفقد عمه حمزة فلم يجده بين القتلى فراح باحثاً عنه ملتمساً له وقد وجده ببطن الوادي قد بقر بطنه وأخرج كبده ومثل به فانبجست عيناه بالدموع باكياً عليه وبكى المسلمون لبكائه وبعد ذلك ألقى عليه ردائه فلم يستر بدنه .

وكان طويل القامة فإذا وضع الرداء على رأسه بدت رجلاه ، وان وضعه على رجليه بدى رأسه ، فأمر النبي أن يقتلع الحشيش من الأرض ويوضع على قدميه حتى لا يظهر التمثيل بقدميه وقد غطى رأسه بردائه مشفقاً أن تراه أخته صفية بهذه الحال فتحزن .

ثم قال النبي : لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ولئن أظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ولما رأى المسلمون حزن النبي (ص) على عمه وغيظه على من فعل به هذا الفعل قالوا : لئن أظفرنا الله بهم لنمثلن بهم مثله لم

يمثلها أحد من العرب فنزلت هذه الآية الكريمة ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم ولئن صبرتم لهو خير الصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون** ﴾ .

فقال النبي : أصبر أصبر اللّٰهم اني قد عفوت وصبرت .

وفي رواية أخرى انه قال : أصبر واحتسب ذلك عند ربي .

وفي الطبري راوياً ذلك عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية نهى النبي عن المثلة فقال : (إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور) ثم أمر أن يحفر قبر لعمه الحمزة ثم صلى عليه فكبر سبعاً ثم أتى بالقتلى فيضعهم إلى جنب عمه حمزة تسعة بعد تسعة فيصلي عليهم وعليه معهم حتى صلى إثنين وسبعين صلاة عليه .

دوي نعي حمزة في أرجاء المدينة فخرجن نساء المدينة تقدمهن صفية بنت عبد المطلب لتنظر أخاها سيد الشهداء وما صنعت به مدية هند فلما رآها رسول الله (ص) قال لولدها الزبير بن العوام ألقها فأرجعها حتى لا ترى ما صنع بأخيها .

الزبير : يا أماه أن الرسول ليأمرك أن ترجعي .

صفية : ولم يا بني وقد بلغني أن أخي قد مثل به .

الـزبير : إن النسـاء رقيقات القلوب قليـلات الصبـر ؛ ويخاف عليك من الجزع .

صفيـة : لم يكن ذلك في غـير الله فما أرضـانا بمـا كان من ذلـك لأحتسبن ولأصبـرن إن شـاء الله فـامضِ وأخبـر النبي بذلك .

فمضى الزبير واعلم النبي بمقالة أمة صفية .

النبي : خل سبيلها .

أتت صفيـة ونظرت إلى أخيهـا فاختنقت بعبـرتها واطلقت من عينيها الدموع ثم صلت عليه واستغفرت له واسترجعت ثم لـوت بوجههـا وانكفأت راجعـة إلى النسوة فصـرخن بـوجههـا وولولن عليه .

ثم أجهد المسلمون أنفسهم بحفر الأجداث ولما تم حفرها أمر النبي أن ينزلـوهم إلى مضاجعهم وأمـر أن يدفنـوا مع حمـزة أخاه عبد الأسد[1] وكان أخاه من الرضاعة وقيل عبد الله بن جحش فإنه جاء إلى الرسول قبل أن تقع الحرب فقال يا رسـول الله إن هؤلاء القـوم قد نـزلوا بحيث تـرى ؛ وقـد سـألت الله فقلت اللّهم أقسم عليـك بنبيك أن نلقي العـدو غـداً فيقتلوني

---

(١) انظر نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٣٨٨

ويمثلوا بي فيقـول لي فيم صنع بـك هـذا فـأقـول فيـك ، وأنـا أسألك يا رسول الله أخرى .

الرسول : وما هي يا عبد الله .

عبد الله : إن تلي تركتي من بعدي

النبي : نعم .

فخرج عبد الله وقد قتل ومثل به ولم يكن شهيد يوم أحـد مثـل به سـوى عبد الله وحمـزة بن عبد المـطلب ودفنا في قبـر واحد ولعل الأقرب أن يكون المدفون معه عبد الله لمناسبة المثلة التي صنعت بهـما ؛ وقد تـولى تركتـه رسول الله فـاشترى لأمـه ملكاً بخيبر ؛ وأقبلت أخته حمنة بنت جحيش فقال لها الرسول يا حمن احتسبي

حمنة : من يا رسول الله .

الرسول : خالك حمزة .

حمنة : أنا لله وإنا إليه راجعون غفر الله له ورحمه وهنيئاً له الشهادة ثم قال لها احتسبي فقالت ومن ؟

النبي : أخوك عبد الله فترحمت إلى الحمزة .

ثم قال لها احتسبي فقالت ومن يا رسول الله .

النبي بعلك مصعب بن عمير .

حمنـة : واحزنـاه ؛ ويقال إنها قـالت واعقراه وصـرخت

وولـولت فقـال النبي : إن للزوج من المـرأة مكـانــاً مـا هــو لأحد .

ثم رجع إلى المدينة وقد مر بدور بني الأشهل فسمع النساء يندبن قتلاهن فقال النبي : وعمي حمزة لا بواكي عليه .

فسمـع الناس قـول النبي فأمـروا نسائهم أن يبكـين حمـزة فمضين إلى دار فاطمة ، وقيل إلى المسجد فبكين حمزة وصحن عليـه فقام النبي وتـرحم على قتـلى أحد ودعـا للنسـاء وأمـرهن بالأنصراف وقد استمر البكـاء عـلى حمزة زمنـاً طويـلاً حتى إن نساء المدينة إذا أردن البكاء على موتاهن بدأن بالعويل على حمزة ثم يثنين على مـوتاهن وقـد أمر النبي بـزيارة قبـور شهداء أحـد عـامـة وعمـه الحمـزة خـاصـة وحتى أن الصـديقـة فـاطمـة الزهراء (ع) خرجت لزيارته عدة مرات وبعد فقدهـا لأبيها ظلت مـلازمة لـزيارة قبـور الشهداء وقبـر عمهـا حمـزة فكـانت تتعهده بالزيارة في كل أسبوع مرتين حتى ماتت

وفاته :

لمـا كانت ليلة أحـد قام الحمـزة وأخذ بيـد أخيـه زيـد بن حارثة وابتعدا عن الناس فأوصاه بـوصية ولم تقف عـلى ما قـال لزيد رغم التتبع الشديد ولم يكن من المعمرين وإنما عاش ثمانية وخمسين عاماً قطع أيـام شبابـه بصيده ومـرحه ثم في الـزعامـة والرياسة شطراً آخراً وحتى إذا بزغت شمس الهـداية وانتشـرت

الدعوة الإسلامية مال إلى النبي وصحبه حتى يوم أحد وذلك في أوائل السنة الثالثة من الهجرة وأواخر السنة الثانية منها .

ومن غـريب ما يـروى عن زيد عن أبي الـزبـير عن جـابـر قال : استصرخنا على قتلانا يوم أحد يـوم حفر معـاوية العـين فوجدناهم رطاباً يتثنون وقد مضى على الحادث أربعون عاماً .

وقال حماد بن زيد وزادني جريد بن حازم عن أيـوب قال فـأصاب المـر رجل حمـزة فطار منهـا الـدم ، وإن صحت هـذه الـرواية فـما هي الأمثال الحـديث النبوي : إن جسـوم الأنبياء والأولياء والصالحين لا تبلى ولا تأكلها الأرض .

مأساة

لم تـزل الأمة العـربية في كـل أدوارها مجـردة سيف الحرب مشهرة رمح الطعن وقد أفنت بـالحرب أعمـارها وشبت عليهـا صبيانها وذلك شيء طبيعي هـو نتيجة عـوامل طبيعيـة من مناخ وتـربة واقتصـاد فقد حـرمت الجزيـرة من كل مـا يؤهلهـا لبنـاء حضـارة أو تشييـد مـدنيـة لمـا كـانت حـال أطـراف الجـزيـرة وجيرانها .

فقد تقدمت فارس بالعلم والثقافة والتـأليف وحازت عـلى كيان يناسب شأنها ومجد يسيرها ما بين الدول الأخرى .

وتقدمت الشام بالزراعة والتجارة فأصبحت مطمح قوافـل الامتيار لتتزود وتتمتع من خيراتها الجمة التي فاضت بها .

وتقـدمت اليمن بهذا وغيـره من مرافق الحضـارة والمـدنيـة زراعية وتجارية وصناعية كالأنسجة وما والاها .

وتقدمت اليونان بالحكمة والفلسفة والطب وفتحت أبوابها

لكل طالب ضالة علمية وعقلية .

وهكـذا تقدم كـل قـطر بمـا يحسن والعـرب في جـزيـرتهم بعيدون إلا عن الفنون الجميلة كالشعر والغنـاء ؛ ومقيدون إلا عن الحرب والقتال لأتفه الأسباب وأخطرها على السواء . ومـا أخبار حرب البسوس وداحس والغبراء وغيرها عنا بالبعيدة .

وإنا إذا طالعنا نفسيات هذه الأمة نجدها تترفع عن أشيـاء تستنكرها وتذم فعلتها وتسم من يأتيها بميسم اللؤم والنذالة .

تصفح تاريخ جميع الحـروب الطاحنـة العربيـة وغيرهـا ؟ فهل تجد تمثيلاً بقتيل كما وجدت ذلـك في يوم أحـد الذي مثلت فيه قريش بأبنائها البررة وزمرتها الصالحة .

فكيف بك إذا قلت لك أن قريشاً أنبل قبيلة عربية عرفهـا التاريخ قـد ارتكبت هذه الجـريمة التي سـودت صحيفة العـرب البيضاء المعروفة بالغيرة والنخوة وحفظ الجوار وما إلى ذلـك من سجايا وخصال طيبة محمودة

وكيف بك إذا حدثتك عن سيد من ساداتها يمـر بابن عمـه فيراه وقد مثلت بـه زوجه فلم يـأنف من ذلك ولم يتـألم من هذه الفعلة المنكرة والوحشية المقيتة . بل ينزل الشماتة به ويزيد في الفعـل والإسائـة فـما رأيـك إذاً في هـذه الشخصيـة الـوضيعـة والنفسية المنحطة ؟ أفعل ذلك بابن عمه جهلاً منه ، أم كـان ذلـك لغايـة يحسب أنه سيصـل إليها ويتـوصل بهـا إلى مـآربـه

ولباناته ، وأظنك ستوافقني إذا قلت لك أنه فعل هذه الوحشية والجناية التي سجلها عليه التاريخ وأداها إلينا ، وسيؤديها إلى كل جيل من الأجيال .

أنه عمل ذلك ليفتخر به أمام زوجته هند وليكسب رضاها عنه وليذاع خبره بمكة وشعابها بأن أبا سفيان الرجل المخلص بأعماله وحبه لدينه ولا يبالي بأهله وأبناء عمومته الذين جاءوا ليغيروا دينهم الذي وجدوا عليه آباءهم ولا يهمه إزاء رضاء قريش عنه وطلب المصلحة التي يتوخاها ـ ارتكاب أية جريمة من الجرائم وارتكاب أية موبقة ورذيلة ليجلب رضاء الناس لتنعقد عليه الآمال ويلتف حوله أهل الفكر البالية والآراء السخيفة ؛ وليظهر عظمته وسطوته عليهم .

علقت بذهنه هذه الخاطرة العمياء ؛ ففعل ذلك الفعل المنكر محتسباً أنه سينال من قريش الرضى والقبول .

هب أن هذه الوحشية صدرت عن امرأة قتل أبوها وعمها وابنها وأخوها وقد ظفرت بقاتل هؤلاء فلم تملك أعصابها لما ثارت أمامها تلك الذكريات فانزلت بحمزة ما أنزلت ؟

فيا ليت شعري ما للرجال تفعل ذلك وتشارك النساء بعقولهن وأعمالهن هذا أبو سفيان يضع طرف رمحه في شدقه وذاك يقطع أذنيه ويهشم أنفه لا لا أنها لمأسات يقض لها المضجع ويأباها

كل غيور ، وانها لنفـوس مطويـة على اللؤم ومجبـولة عـلى الشر وأنـك إذا بحثت عن مصدر هـذه الأفاعيـل لا تجد وقـوع هـذا الفعل إلا من بني أمية ولم يكن لعـربي ذنب غير هؤلاء ونـاهيك بهم .

أقوال وآراء

إذا تجردنا عن العاطفة ونزعات النفس التي تطوح بكل منا فترمي بنا في مهاوي البغض المقيت ، والحب الذي يمر بنا نحو الغلو فيخرجاننا عن العقيدة التي نتمسك بها وندين .

وهلم معي نكــون رجلين مستقلين بــالتفكــير لا تتغلب عليهما النزعات ولم تؤثر عليهما العاطفة فتزل قدماهما ؛ وتتكور صريعة أمامهما جـل المقدسـات والمبادىء ويضـلان عن الحقيقة ضلالاً بعيداً .

كن رجلاً منطبعاً بطابع الوجدان طالباً للحقيقة يقول الحق ويروده فإنك ستكون حكماً فيما يعرض عليك وما يعرض عليك إلا شخصية جبارة قد احتفظ بها الدهر قروناً وأحقاباً .

إنـا سنعـرض عليـك فتى من فتيـان عبـد المـطلب وسيـداً من سادات قريش وعماً للنبي محمد فلا تنظره بهـذه النظرات المؤهلة لشـرف في القوم والعشيـرة فقد حـاز هذه الصفـات أخـوه أبـو لهب ، ولكنـا نريـد منك أن تـطالع سجـل حياتـه وتستعرض

شخصيته وقل كلمتك بعد ذلك .

هذا أجل ما نريد منك ولا نريد أكثر من ذلك حتى تسجل الأجيال الآتية رأيك في هذه الشخصية التي دوخت في حينها قطراً ؛ فسعد بها قوم وذل آخرون .

هذا التاريخ وقد أملي علي اذن الدهر الواعية فحفظت ما أملي وسجلت كل ما نطق ، لقد سجلت أقوال رجل الإنسانية ومعناها أقوال النبي محمد وها أنا ذا أقصها عليك لتزيدك بصيرة وإطلاعاً عليه وعلى أعماله التي تمت ودلت عليه .

روى المجلسي في بحاره في المجلد السادس في باب أعمام النبي ، راوياً عن إسماعيل بن إبراهيم الخلواني عن سند طويل لا حاجة لذكره عن أنس بن مالك قال قال رسول الله (ص) : نحن بنو عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا رسول الله ، وحمزة سيد الشهداء ؛ وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين وعلي وفاطمة والحسن والحسين وذريته من أهل بيته حتى عدهم إلى المهدي[1] المنتظر الذي يخرج ويملؤ الله به الأرض قسطاً وعدلاً

هذا رسول الله قد قال كلمته أن عمه حمزة سيد الشهداء وسيد من سادات أهل الجنة وقد قال كلمة ثانية بحقه وذلك في

---

(١) انظر ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ص ١٥ فقد أخرجه بسنده عن مالك وأخرجه ابن السري

يـوم أحد وقـد وقف عليه فقـال : أشهد أنـك سيـد الشهـداء وأميرهم .

وقد روي بن المغيرة عن جده عن جده عن السكـوني عن الصـادق (ع) جعفـر بن محمـد عن آبـائـه (ع) عن الرسول الأكرم انه قال (ص) : أحب إخواني إلي علي بن أبي طـالب ، وأحب أعمامي إلي الحمـزة سيد الشهـداء ولـولا صفية لتركت دفنه حتى يحشر في بطون السبـاع وحواصـل الطير إلا وان الله قـد اختارني في ثـلاثـة من أهـل بيتي وأنـا سيـدهم واتقـاهم ولا فخـر اختـارني وعليـاً وجعفـر بن أبي طـالب ؛ وحمـزة بن عبـد المـطلب فقـد كنـا رقـوداً بـالأبـطح ليس منـا الامسجي بتوبه على وجهه ؛ عـلي بن أبي طالب عن يميني ؛ وجعفـر عن شمالي ؛ وحمـزة عند رجـلي فـما نبهني غـير حفيف أجنحـة المـلائكـة وبـرد ذراع عـلي بن أبي طـالب في صـدري فـانتبهت من رجعتي وجبرئيـل في ثلاثـة أملاك يقـول لـه أحـد الأملاك الثلاثة يا جبـرئيل إلى أي هؤلاء أرسلت فقـال له هـذا وأشار إلى محمد .

الملك ومن هذا يستفهمه

جبرئيل هذا محمد سيد النبيين ؛ وهذا علي بن أبي طالب سيـد الوصيـين وهـذا جعفـر بن أبي طـالب ذو الجنـاحـين لـه جنـاحـان خضيبـان يـطير فيهـما في الجنـة ؛ وهــذا حمـزة بن

عبد المطلب سيد الشهداء .

وعن علي بن أبي طالب عن النبي (ص) انه قال : من الركبان يوم القيامة عمي الحمزة أسد الله وأسد رسوله فانه يأتي يوم القيامة راكب ناقتي القضباء .

وعن سعد بن أبي الخطاب عن الأحم عن عبد الله البطل عن عمر بن أبي المقدام عن سعد بن جبير عن ابن عباس قال : لما خرج النبي (ص) يوم بدر وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب وهو يقول يا معشر الأنصار يا معشر بني هاشم يا معشر بني عبد المطلب انا محمد رسول الله إلا اني خلقت من طينة مرحومة في ثلاثة من أهل بيتي أنا وعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب .

ومن كتاب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) وقد أرسله إلى معاوية ألا ترى غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أحدث أن قوماً استشهدوا في سبيل الله تعالى من المهاجرين والأنصار ولكل فضل حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء وخصه رسول الله بسبعين تكبيرة عند صلاته) وقد عني بذلك الحمزة بن عبد المطلب .

وعن الإمام الباقر (ع) انه قال : كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) دائماً يقول والله لو كان عمي حمزة

وجعفر حيين لما طمع فينا أبو بكـر ولكن ابتليت بجافيـين عقيل والعباس .

ومثل هذا الحـديث قد أخـرجه الكليني في الكـافي عن ابن مسكان عن سدير قال كنـا عند أبي جعفـر (ع) فذكـرنا مـا أحدث الناس بعد نبيهم واستذلالهم أمير المؤمنين (ع) فقال رجـل من القوم أصلحـك الله يا أبـا جعفر فـأين كـان عـز بني هاشم وما كانوا فيه من العدد فقـال أبو جعفـر (ع) ما بقي أحـد من بني هاشم وإنمـا كان جعفـر وحمزة فمضيـا وبقي معـه رجلان ضعيفان ذليلان حديثا عهد بالإسلام عقيل والعباس أما والله لو أن الحمزة وجعفراً كانا حيين ووقع بحضرتهـما ما وصـلا إلى ما وصلا إليه ولو كانا شاهديه لأتلفا نفسيهما دونه .

وقـد روى ابن أبي الحديد قـال قال أبـو عثمان ولئن كـان[1] الفخر في البسالـة والنجدة وقتـل الأقران وجـزر الفرسـان فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب .

وكـان الأحنف إذا ذكر الحمـزة بن عبد المـطلب قـال : اكيس ، وكان لا يرضى أن يقول شجاعاً ولا بهمه لأن العـرب تجـعـل ذلك أربـع طبقات فنقـول شجاعـاً وإذا كان فـوق ذلك فتقول بطلاً وإذا كان فوق ذلك فتقول بهمه وإذا كان فوق ذلك فتقول أكيس .

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٧٦

وقال ابن أبي الحديد سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد ما تقول لو أن حمزة وجعفراً كانا حيين يوم مات رسول الله (ص) أكانا يبايعان علياً بالخلافة فقال : نعم كانا أسرع إلى بيعته من النار في يبس العرفج فقلت له أظن أن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ولا أظن حمزة كذلك وأراه جباراً قوي النفس شديد الشكيمة ذاهباً بنفسه شجاعاً بهمة وهو العم والأعلى سناً وآثاره في الجهاد معروفة وأظنه يطلب الخلافة لنفسه .

النقيب : الأمر في أخلاقه وسجاياه كما ذكرت ولكنه صاحب دين متين وتصديق خالص لرسول الله (ص) ولو عاش لرأى من أحوال علي (ع) مع رسول الله (ص) ما يوجب أن يكسر له نخوته وأن يقيم له صعره وأن يقدمه على نفسه وأن يتوخى رضا الله ورضى رسوله فيه وإن كان بخلاف إيثاره ثم قال النقيب . أين خلق حمزة السبعي من خلق علي الروحاني اللطيف الذي جمع بينه وبين خلق حمزة فاتصفت بهما نفس واحدة وأين هيولانية نفس حمزة وخلوها من العلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالفطرة لا بالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققي الفلاسفة الإلهيين ؛ ولو أن حمزة حي حتى رأى من علي ما رآه غيره لكان اتبع له من ظله وأطوع له من أبي ذر والمقداد وأما قولك هو العم والأعلى سناً فقد كان العباس العم والأعلى سناً وقد عرفت ما بذله وندبه إليه ،

وكان أبو سفيان كالعم وكان أعلى سناً وقد عرفت ما عرضه عليه ثم قال ما زالت الأعمام تخدم أبناء الأخوة وتكون أتباعاً لهم ألست ترى داود بن علي وعبد الله بن علي وصالح بن علي وسليمان بن علي وعيسى بن علي وإسماعيل بن علي وعبد الصمد بن علي خدموا ابن أخيهم وهو عبد الله بن السفاح بن محمد بن علي وبايعوه وتابعوه وكانوا أمراء جيوشه وأنصاره وأعوانه ألست ترى الحمزة والعباس أتبعا ابن أخيهما النبي محمد (ص) وأطاعاه ورضيا برئاسته وصدقا دعوته ؛ ألست تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم وشيخهم المطاع وكان محمد رسول الله (ص) يتيمه ومكفوله وجاريا مجرى أحد أولاده عنده ثم خضع له واعترف بصدقه ودان لأمره حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدنى الأعلى فقال فيه

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

وإن سراً اختص به محمد (ص) حتى قام أبا طالب وحاله معه حال مقام المادح له ، انه لسر عظيم وخاصية شريفة ؛ وإن في هذا المعتبر عبرة أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له ولا أعوان معه ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه فضلاً عن أن يقهر غيره فتعمل دعوته وأقواله في الأنفس

ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج حتى تطيعه أعمامه ، ويعظمه مربيه وكافله إلى أن قال النقيب؛ وكيف قلت أظن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ولا أظن في حمزة ذلك ، إن كنت قلت ذلك لأنه أخوة فإنه أعلى منه سناً وهو أكبر من علي بعشر سنين وقد كانت له خصائص ومناقب كثيرة .

وقد ذكر بعض المحدثين أن أكثر الناس ثواباً وأفضلهم قدراً بعد رسول الله (ص) فاطمة البتول وعلي وولداه الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة والحمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب وقد خصه الله بجناحين يطير فيهما في الجنة

وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد معرباً عن رأي المعتزلة في أفضلية خلق الله في أرجوزة ذكرها في شرح نهج البلاغة فقال :

وخير خلق الله بعد المصطفى[1]
أعظمهم يوم الفخار شرفا
السيد المعظم الوصي
بعد البتول المرتضى علي
وأبناه ثم حمزة وجعفر
ثم عتيق بعدهم لا ينكر

---

(١) انظر نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٤٠

براكين تتفجر

إذا بحثت منقباً في كتب الأدب والتاريخ عما بعد وفاة الحمزة بن عبد المطلب وجدت حفلين تبارى بهما شعراء ذلك العصر

وجدت حفلاً عامراً يمخر بالبشر كما تمخر السفينة شاقة عباب البحر الهائج ؛ وقد تبادلت به كؤوس ابنة الكرم وعلاه الطرب وضجت به أصوات المغنين استجابة لدواعي الفرح العظيم الذي خالج ضمائرهم في هذه الكرة التي حازوا بها الظفر وأدركوا بها الثأر

يعقد هذا الحفل في دار أبي سفيان فيحضر ابن الزبعري وأضرابه من الشعراء فيتساقون الخمرة فرحين مما أوتوا من النصر والظفر وأخذ الثأر من حمزة والمثلة به وبكاء النبي عليه ؛ فتخرج هند مرحة وقد سمعت صراخ بني عبد المطلب وقد تعالى من دار حمزة بالندبة والعويل عليه

وما أبهجها حينما تفد رواد مكة ؛ وتسألهم عن

محمد (ص) وثكله بعمه فيخبرونها بحزن النبي وعويل صفية ، وما هي إلا أيام فتسمع تلك الندبة تناقلها صبيان الحي وتحدو بها الركبان ؛ فتزيد شماتتها ويكثر حقدها فتهتز فرحاً وسروراً بثكل صفية ، ويتم ولديه عمارة ويعلى فترجع قائلة ليس هذا بعتبة وشيبة والوليد وفلذة كبدي حنظلة

هذا حفل يعقده أبو سفيان وتحضره هند وهناك حفل آخر تعلوه الكآبة ويسوده الحزن والذهول تعقده أخت حمزة صفية بنت عبد المطلب غير جازعة على قتل أخيها وفراقه ولكنها تبكيه للمثلة التي صنعتها فيه لئيمة الحسب عديمة الإنسانية

حفل تحوطه الآلام وتحفه الدموع تعقده من نساء المهاجرين والأنصار ونساء بني هاشم حينما سمعن النبي يقول « وعمي حمزة لا بواكي عليه » هذه النساء تعقد حفلاً تذري فيه الدموع وتنثر به الآهات المحرقة

فيعقد المسلمون مأتماً يبكون قائداً من قوادهم وسريا من سراة بني عبد المطلب ذاكرين فضله وشرفه شاكرين أياديه البيضاء ونعمه التي أسداها عليهم . فيكتظ الحفل وتشرأب النفوس وتتطاول الأعناق لتلك الأعواد ينتظرون الشاعر المبدع والخطيب المصقع

هناك يطلع على الجمع كعب بن مالك[1] الشاعر الذائع

الصيت فيلقي ما أعده لتأبين صديقه وقائده وقد انفجر بالصراخ والعويل فلما هدأت نفسه أنشأ يقول

---

(١) كعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي الأنصاري ، ويكنى بأبي عبد الله ، وقيل بأبي عبد الرحمن وأمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة وقد آخى النبي بينه وبين طلحة بن عبيد الله حينما آخى بني المهاجرين والأنصار وكان شاعراً فحلا من شعراء رسول الله الذين يردون الأذى عنه يناصرونه بألسنتهم وسيوفهم شهد جميع المواقف مع رسول الله إلا يوم بدر . وقد عاش بعد النبي زمناً طويلاً حتى عصر معاوية بن أبي سفيان وتوفي سنة ثلاثة وخمسين بعد الهجرة وعمره يومئذ سبعة وسبعين عاماً وقد ذهب بصره في آخر أيامه وكان كعب يهدد جيش المشركين ويخوفهم بشعره لما فيه من ضخامة في اللفظ ومبالغة في ذكر جيش المسلمين وبسالته وقد فتح كعب عشائر « دوس » ببيتين من الشعر وذلك بعد أن غزى النبي قبائل تهامة وقهرها ثم خيبر وفتحها وقد هدد كعب قبائل دوس ببيتين فجاؤوا النبي خائفين مسلمين وهاك ما قال

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
تخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوساً أو ثقيفاً

فلما سمعت دوس هذين البيتين قال بعضهم لبعض انطلقوا وخذوا لأنفسكم الأمان لئلا ينزل بكم مثل ما نزل بثقيف

وكان له صحبة وصداقة مع عم النبي حمزة غير ما بينهما من الحب والتآخي بالله فقد ألف لحمزة لما يجد فيه من مآثر وخصال ترفعه وتسمو به ولذلك تجد بكاءه لحمزة بكاء مفجوع متألم أكثر ممن بكاه من إخوانه وأصحابه

بكت عيني وحق لها بكاها | وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا | أحمزة ذا كم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعاً | هناك وقد أصيب به الرسول
أبا (يعلى) بك الأركان هدت | وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك في جنان | فخالطها بغم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبراً | فكل فعالكم حسن جميل
رسول الله مصطبر كريم | بأمر الله ينطق ما يقول
ألا من مبلغ عني لويا | فبعد اليوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا | وقائعنا بها يشفي الغليل
نسيتم ضربنا بقليب بدر | غداة أتاكم الموت العجيل
غداة ثوى أبو جهل صريعاً | عليه الطير حائمة تجول
وعتبة وابنه خرا جميعاً | وشيبة عضه السيف الصقيل
ومتركنا أمية مجلعباً[1] | وفي خيزومة لدن نبيل
وهام بني ربيعة سائلوهم | ففي أسيافنا منها فلول
ألا يا هند فأبكى لا تملي | فأنت الواله العبري الهبول[2]
ألا يا هند لا تبدي شماتاً | «بحمزة» أن عزكم ذليل

ينتهي كعب من رثاء صديقه الحميم وتهدأ نفسه المكواة بنار الأسى وهذا كعب يرسل رسالة إلى قريش بعدما تصل إلى

(١) المجلعب : الممتد على وجه الأرض ، والخيزوم أسفل الصدر ، والنبيل صفة للدن وهو العظيم

(٢) الهبول التي فقدت عزيزها

مسمعه شماتة قريش وأبي سفيان بقتلهم حمزة بن عبد المطلب وأصحابه فيقول

أبلغ قـريشـاً عـلى نـأيهـا اتفخـر منـا بمـا لم تـلى
فخـرتم بقتـلى أصـابتهم فـواضـل من نعم المفضـل
فحلوا جنـانـاً وأبقـوا لكم أسـوداً تحامي عن الأشبـل
تقـاتـل عن دينهـا وسـطهـا نـبي عـن الحق لم يـنـكـل
رمتـه معـد بعـور الكـلام ونبـل العـداوة لا تـأتـلي

فلما فرغ كعب من أبياته حتى سمع رنة الأسى وقد سارت الحفل وسمع من خلف الستار صوت ثاكل وهي ، فيسأل عن رنة الصوت والولولة .

إنها لصفية بنت عبد المطلب تبكي راحلها وأخاها حمزة ، فيقف من الحيرة مذهول اللب شارد الفكر ملتهب الضمير لا ينبس ببنت شفه لما أودع بنفسه ذلك الصوت المفجع من ألم وإحساس فقد أوحي له أخيلة وتفكيراً وقد تذكر خدنه المحبوب وصديقه الوفي ، الذي انطبع بطابع العطف والحنان وعرف بالحنو على أبناء المهاجرين والأنصار فتتفجر عاطفته ويثور بركان نفسه فيخاطب صفية قائلاً :

صفيـة قـومي ولا تجـزعي وبكى النسـاء عـلى حمـزة
ولا تسأمي أن تطيلي البكاء عـلى أسـد الله في الهـزة

فقد كان عزاً لأيتامنا   وليث الملاحم في البزة[1]
يريد بذاك رضا أحمد   ورضوان ذي العرش والعزة

هذا وقد مالت الشمس إلى جانب الغرب مؤذنة بالإنحدار منهزمة أمام جيش الليل الحالك مستترة خلف الكرة لتمنع عنه وتعود إلى حربه إذا جمعت قواها وعادت لها عزيمتها ؛ فيهتف بلال على مأذنته بصوته الجهوري الله أكبر فيسكت كعب عن تلاوة شعره ، وينفض حفله الحاشد ؛ ويتوجه مؤدياً فريضة الصلاة خلف النبي وقد اكتنفت قلب كعب الهموم وأثرت فيه وقد مضى إلى بيته وألقى نفسه على مضجعة مستقبلاً الرقاد عسى ولعل أن يزور طرفه الساهر ، وعينه العبري الثكول .

ولكن الكرى يأبى أن يمر بعينيه ويطوف بأجفانه وكلما حاول ذلك استعصى عليه

كلما أغمض عينه وأطبق جفنه تنفتح أمام مخيلته أبواب الذكرى وتعرض عليها صورة من صور المآسي ، ويلوح أمامه شبح قائده وخدنه الذي قطع معه شوطاً من الحياة في حب الله وحبه لذاته فيراه بغير ما كان قد عوده أن يراه بها

رآه ممتداً على أديم الأرض وقد قطعت أصابعه ؛ وجدع أنفه وبقرت بطنه وقد لعبت به أكف السوء فأحالت تلك

(١) البزة بكسر الباء ، الحرب ، وبفتحها السلب .

الروعة والبهجة المتجلية بوجهه إلى صور ملؤها الخوف والرعب وأحالت ذلك الثغر الضحوك والمبسم البضِ إلى ثغر طفحت عليه آيات الحزن ، وأنياب ظهرت عليهن الوحشة والكآبة ، فتهزه نفسه وتغلق عليه أبواب راحته فيجلس وحده خشية أن يسمعه أهله فيأخذ بالنياحة على صديقه وتهيج عاطفته فليفظ قلبه قطعاً شعرية فاسمعه حيث يقول

طرقت همومك فالرقاد مسهد
وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد
ورعت فؤادك للهوى خمرية
فهواك غوري وصحيك منجد[1]
ودع التمادي في الغواية سادراً
قد كنت في طلب الغواية تغند
ولقد أنى لك أن تناهي طائعاً
أو تستفيق إذا نهاك المرشد[2]
ولقد هددت لفقد حمزة هدة
ظلت بنات الجوف منها ترعد[3]
ولو أنه فجعت حراء بمثله
لرأيت رأسي صخرها يتبدد

(١) وفي رواية وصحوك منجد
(٢) أنى : حان وقرب
(٣) بنات الجوف : أراد قلبه وما ولاه من أمعاء وهو من باب الكناية

قوم تمكن من دوابة هاشم
حيث النبوة والندى والسؤدد
والعاثر الكوم الجلاد إذا غدت
ريح يكاد الماء فيها يجمد[٤]
والتارك القرن الكمي مجدلاً
يوم الكريهة والقنا يتقصد
وتراه يرفل في الحديد كأنه
ذو لبدة شثنى البراثن أربد[٥]
عم النبي محمد وصفية
ورد الحمام فطاب ذاك المورد
وأتى المنية معلماً في أسرة
نصروا النبي ومنهم المستشهد[٦]
ولقد أخال بذاك هند بشرت
لتميت داخل علة لا تبرد
مما صحبنا بالمقنقل قومها
يوماً تغيب فيه عنها الأسعد
وببئر بدر إذ يرد وجوههم

---

(٤) الكوم : الناقة العظيمة السنام والجلاد القوية
(٥) الشثن : الغليظ . والبراثن الأصابع
(٦) المعلم الذي يضع على صدره علامة في ساحة الحرب وكان حمزة يضع على صدره ريشة من ريش النعام

جبريل تحت لوائنا ومحمد
حتى رأيت لدى النبي سراتهم
قسمين نقتل من نشاء ونطرد
ما قام بالعطن المعطن منهم
سبعون عتبة منهم والأسود (٧)
وابن المغيرة قد ضربنا ضربة
فوق الوريد لها وشاش مزبد(٤)
وأمية الجمحي قوم ميله
عضب بأيدي المؤمنين مهند
فأتاك فل(٩) المشركين كأنهم
والخيل تثفنهم نعام شرد
شتان من هو في جهنم ثاوياً
أبداً ومن هو في الجنان مخلد

أخذ كعب يردد قصيدته في بيته ينتظر الصبح على أمر من جمر الغضي ليوافي بها حفله الملتف حول رسول الله المحدق به ، يريد أن يفي لحق الأخوة ويفي بالصداقة التي احتلت قلبه وأخذت منه مأخذها .

---

(٧) العطن : مبرك الإبل حول الماء . والمعطن الذي عود أن يتخذ مربضاً لها

(٨) ابن المغيرة : أراد به شيبة .

(٩) فل : انهزم ويقال فل الجيش انهزم ؛ وتثفنهم تطردهم وتتبع آثارهم .

ولا غرابة إن قلت أن هذه القصيدة هي من أجـود ما رثى بهـا الحمزة في عصـره وحينـه حيث أنبـأت عن قلب كليم أفعم بالحسرات .

ويقف كعب وقـد أخذ المسلمـون مقاعـدهم وأخـذ النبي محله فتلي ما عنده والمسلمون واجمون لا ينطقـون بقول سـوىٰ ما تعبـر عنه الـدمـوع حتى إذ أتم كعب قصيـدتـه وجلس في محله بعدما شكره النبي وترحم له .

فيقوم حسان بن ثابت(١) إلى منصة الخطاب وقد مـر بدار حمزة فشاهد الوحشـة قد ضـربت على جـدرانها فثارت عـاطفته متفجعاً عليه ومتألماً على فراقه فأنشأ :

---

(١) حسـان بن ثابت بن المنـذر الأنصاري وقـد اختلف في كنيتـه فقيـل يكنى بأبي الوليد ، وقيل بأبي عبد الرحمن ، وقيل بـأبي الحسام ، وكان يلقب بشاعر رسول الله وذلـك لما سمـع شعراء قـريش يهجون النبي قال المسلمون لعلي يا عـلي أهجهم فقال الإمـام علي أن أذن لي رسـول الله فقال الـرسول أن عليـاً ليس عنده مـا يراد في ذلـك فقام حسان بن ثابت وقال أنا لها فأخذ بطرف لسانه وقال والله ما يسـرني به قول بين بصري وصنعاء

وكان حسان متاجراً بشعره متكسباً به لم يقل الشعر عن عاطفة وتأثـر وإنما يقول ذلك بدافع حب المال .

وكان شحيحاً جبـاناً مشهـوراً وكان من المعمـرين عاش في الإسـلام ستين عاماً وفي الجاهلية ستين عاماً وأدرك النابغة الذبياني وأنشده من شعره وكلاهما شهد لصاحبه بالشاعرية وقد توفي سنة أربع وخمسـين بعد الهجرة وقيل سنة خمسين

أتعرف الدار عفى رسمها[٢]
بعدك صوب المسبل الهاطل
بين السراديح فادمانة
فمدمع الروحاء في حائل
سألتها عن ذاك فاستعجمت
لم يدر ما مرجوعة السائل
دع عنك داراً قد عفى رسمها
وأبك على حمزة ذي النائل
المالىء الشيزي إذا أعصفت
غبراء في ذي الشبم الماحل[٣]
والتارك القرن لدى لبده
يعثر في ذي الخرص الذابل[٤]،
واللابس الخيل إذا احجمت
كالليث في غاباته الباسل
أبيض في الذروة من هاشم
لم يمر دون الحق بالباطل[٥]

---

(٢) لم يملك حمزة داراً في المدينة وإنما أقام مع زرارة بن أسعد وقد مر حسان على دار أسعد فتذكر سيد شهداء الجنة فأنشأ هذه القصيدة .

(٣) الشيزى : جفان من خشب يصب بها الطعام وتقدم للضيفان

(٤) اللبد : السرج . وذي الخرص الرمح

(٥) المراء : إظهار خلاف الواقع بصفة الواقع

ما لشهيد بين أرحامكم
شلت يداً وحشي من قاتل
إن امرىء غودر في آله
مطرورة مارنة العامل
اظلمت الأرض لفقدانه
وأسود نور القمر الناصل(٤)
صلى عليك الله في جنة
عالية مكرمة الداخل
كنا نرى حمزة حرزاً لنا
من كل أمرنا بنا نازل
وكان في الإسلام ذا تدرءٍ
لم يك بألواني ولا الخازل(٥)
لا يفرحن يا هند واستجلبي
دمعاً وأذري عبرة الثاكل
وأبكي على عتبة إذقطه
بالسيف تحت الرهج الحائل(٦)
اذخر في مشيخة منكم
من كل عات قلبه جاهل

---

(٤) الناصل : القمر الخارج من السحاب

(٥) الدرء : القوة والشدة في الأمر

(٦) الرهج : الغبار الكثيف الذي يحول بين الاثنين المتبارزين ولم يبصر أحدهما الأخر

أرادهـــم حمــزة في أســرة
يمــشــون تحــت الحــلق الــفــاضــل
غــداة جــبــريــل وزيـــر لـــه
نــعــم وزيــر الــفــارس الحــامــل

يفرغ حسان من شعره والقوم مطرقون صاغون لما يفوه بـه حسان وخاصة النبي فإنه يميل إلى شعره ويحب سماعه .

فيعود حسان في اليـوم الثاني ويلقي قصيـدة عامـرة حسب عصـره وحينه وقـد اتفق في تنسيقها ليله وأجهـد قواه الفكـريـة ليسلي النبي بذلك وليذهب عنه ما أصـابه من هم وغم في فقـد عمه أسد الله ولقد استعرض بها ذكر أخـوانه الـذين استشهدوا يوم أحد ؛ وتفجع عليهم وبكى وأنشأ قائلاً :

يـامي قـومي فـانـدبن سحـرة شجـو النـوائـح[١]
كـالحامـلات الـوقـر بـالثقـل الملحـات الـدوالـح
المعـولات الخـامشـات وجـوه حـرات صحـائـح
وكـأن سيل دمـوعها الأنصـاب تخضب بالـذبائـح
ينفضن أشعـاراً لهن هنـاك بـاديـة المسـائـح

(١) نذكر هذه القصيدة ونعزيها لحسان بن ثابت على ما ذكرها ابن هشام في سيرته في الجزء الثالث منها وبالرغم من إنا بحثنـا في ديوانـه ونقبنا عنها في مصادر أخرى فلم نعثر على شيء يطمننا وعلى أي حـالة فقـد وجدنا هذه القصيدة فأثبتناهـا هنا لتعلقهـا بالمقـام . ولعل الأستـاذ البرقوقي سهى عن أن يسجلها فيما جمعه لحسان من شعره وفاته ذلك والله أعلم

وكأنها أذناب خيل بالضحى شمس روامح
ما بين مشزور ومجزور يدغدغ بالبوراح
يبكين شجواً مسلبات
كدحتهن الكوادح
ولقد أصاب قلوبها
مجل له جلب قوارح
إذ أقصد الحدثان من
كنا نرجي إذ نشايح
أصحاب أحد غالهم
دهر ألم له جوارح
من كان فارسنا وحا
مينا إذا بعث المسالح[1]
يا حمز لا والله لا
أنساك ما صر اللقائح
لمناخ أيتام وأضياف
وأرملة تلامح[2]
ولما ينوب الدهر في

---

(١) المسالح . مخافر توضع في الطريق للأمن وخوف العدو
(٢) تلامح : المرأة تنظر تارة وتغض طرفها أخرى حياء وشوقاً للطعام

حرب لحرب وهي لاقح

يا فارساً يا مدرهاً[٣]

يا حمز قد كنت المصامح

عنا شديدات الخطوب

إذا ينوب لهن فادح

ذكرتني أسد الرسول

وذاك مدرهنا المنافح[٤]

عنا وكان بعد إذ

عد الشريفون الجحاجح

يعلو القاقم جهرة

سبط اليدين أغر واضح

لا طائش رعش ولا

ذو علة بالحمل آنح[٥]

بحر فليس يغب جارا

منه سبب أو منادح[٦]

أدى شباب أولى الحفائظ

---

(٣) المدرة : بالكسر المدافع باليد واللسان . والمصامح . الشديد في دفاعه .

(٤) المنافح . المكافح

(٥) الآنح . الضعيف الذي لا ينوء بالحمل

(٦) المنادح : الأرض الواسعة البعيدة .

والشقيلون المراجح
المطعمون إذا المشاتي
ما يصفقهن ناضح
لحم الجلاد وفوقه
من شحمه شطب شرائح[1]
ليدافعوا عن جارهم
ما رام والظعن المكاشح
لهفي لشبان رزئناهم
كأنهم المصابح
شم بطارقة غطارفة
خضارمة مسامح[2]
المشكرون الحمد بالأموال
ان الحمد رابح
الحامزون بلجمهم
يوماً إذا ما صاح صائح[3]
من كان يرمي بالنواقر
من زمان غير صالح

---

(١) الشطب : جمع شطبه . وهي القطعة من سنام البعير ، والشرائح القطع من اللحم

(٢) الخضارم : الذين يكثرون الطعام كرماً وطيباً .

(٣) الحمز . الوثوب .

ما أن تزال ركابه
يرسمن في غبر صحاصح
راحت تباري وهو في
ركب صدورهم رواشح
حتى تؤب له المعالي
ليس من فوز السفائح
يا (حمز) قد أوحدتني
كالعود شد به الكوافح
أشكو إليك وفوقك
الترب المكور والصفائح
من جندل يلقيه فوقك
إذ أجاد الضرح ضارح
في واسع يحشونه بالترب
سوته المماسح
فعزائنا أنا نقول
وقولنا برح البوارح(٤)
من كان أمسى وهو
عما أوقع الحدثان جانح
فليأتنا فلتبكي عيناه

---

(٤) البوارح : الأمور الصعاب

القائلين الفاعلين
ذوي السماحة والممادح
من لا يزال ندى يديه
له طوال الدهر مائح

هذه عواطف شاعر النبي حسان يرسلها في أبياته مسلياً النبي بها ولكنه لا يرسلها عن أخاء وطيد وصداقة شديدة لفتى عبد المطلب ولم يبكه بكاءً مراً كما بكاه كعب إذ لم تتوثق في قلب حسان علائق الود والاخاء كما توثقت تلك العلائق مع كعب بن مالك فقد كان كعب يطلق لعينيه الدمع ولقلبه الزفرات ولروحه الأنين ، كلما مر ذكر حمزة أو سنحت ذكراه على خاطره

بل كان يتراءى له في جل أوقاته شبح صديقه حمزة فتعلق نفسه في ذلك الشبح وينعقد طرفه بالنظر له فما زال يتصل به روحياً كما يتصل العاشق بمعشوقه والحبيب بحبيبه ، ويخلو به في عالم الخيال فيناجيه ؛ ويطيل النجوى معه

لذلك تراه وقد بكاه أكثر من حسان بقصائد كثر ، ولولا تسليه وعزاؤه بالنبي لظل يبكي عليه ما دام في جسده عرق نابض ونفس يتردد ، ولولا أن يجلب عليه الأذى والحزن لاستمر في بكائه ؛ ولو قبل الموت بديلاً لكان كعب أول من

أختار البدل بنفسه لخدنه وحميمه ؛ ولكنه أبى إلا الفتى حمزة

وهاك كعب وقد طغى عليه حزنه مرة أخرى ؛ وعاودته زفراته وقد ظن أنها قد ذهبت وخمدت وهيهات ذلك فإنها لا زالت تتوقد كما تتوقد النار إذا ألقى عليها الحطب .

فراح يرثي أخاه الذي تمركز حبه في ضميره ، وجرى فيه مجرى الدم في جميع أجزاء البدن كل ذلك كان وفاءً لحقوق الصداقة وحفظاً لرعي الذمام فقال :

نشجت وهل لك من منشج
وكنت متى تذكر تلجج
تذكر قوم أتاني لهم
أحاديث في الزمن الأعوج
فقلبك من ذكرهم خافق
من الشوق والحزن المنضج[1]
وقتلاهم في جنان النعيم
كرام المداخل والمخرج
بما صبروا تحت ظل اللواء
لواء الرسول بذي الأضوج[2]
غداة أجابت بأسيافها

---

(١) المنضج : المحكم يقال أمر منضج أي محكم .

(٢) الأضوج : جانب الوادي

جميعاً بني الأوس والخزرج
وأشياع أحمد إذ شايعوا
على الحق ذي النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة
ويمضون في القسطل المرهج[٣]
لذلك حتى دعاهم مليك
إلى جنة دوحة المولج
فكلهم مات حر البلاء
على ملة الله لم يحرج
كحمزة لما وفى صادقاً
بذي هبة صارم سلجج[٤]
فلاقاه عبد بني نوفل
يبر بركاً لجمل الأدعج[٥]
فأوجره حربة كالشهاب
تلهب في اللهب الموهج[٦]

---

(٣) القسطل : الغبار المرهج الذي ثار حتى علا وارتفع في الجو وهو صفة إلى القسطل

(٤) السلجج : المرهف من السيوف

(٥) الأدعج : الأسود .

(٦) الموهج : المضطرم

ونعمان أو في بميثاقه
وحنظلة الخير لم يحنج

عن الحق حتى غدت روحه
إلى منزل فاخر الزبرج

أولئك لا من ثوى منكم
إلى النار في الدرك المرتج

ينتهي رثاء الإخوان وتفجعهم على صديقهم الراحل إلى حيث الروح والريحان مما أعده الله له في تلك الدار .

وهناك أخوة نسب للصلب والرحم يريدون أن يقيموا البكاء على فقيدهم والعويل عليه فهل يا ترى من يقوم بذلك الحق الذي لا بد وأن يؤدي ؛ أيقوم به العباس بن عبد المطلب وها هو ذا أسير ؟ ومكبل في أصفاد قريش وتقاليدها وقد شغله حب المال ولمه حتى أخذ كل ما في قلبه من الرحمة واللين زيادة على ما فيه ، فكان غير رقيق العاطفة وقد مازج طبعه شيء كثير من القسوة والشدة .

ولا يذهبن عليك ، فهذان عاملان قويان هما قد صرفا العباس من أن يقوم بتأبين أخيه والبكاء عليه ، وأما ما هو فيه من أسر قريش فلا يعد سبباً مانعاً من أن يبكي أخاه ويرثيه

إذن من يقوم بالبكاء والعويل على حمزة من أهل بيته وذويه أيقومَ بذلك النبي وهو أرفع شأناً وأجل قدراً من أن ينطق

بالشعر وقد قال تبارك وتعالى مخاطباً من ظن أن القرآن شعر وان محمداً ينطق بـذلك (ومـا علمناه الشعـر وما ينبغي لـه) اذن لا بد وأن تقوم بذلك صفية[1] بنت عبد المطلب شقيقة حمزة

(١) صفيـة بنت عبد المطلب بن هاشم شـاعرة عـربية مفـوهة نـطقت بالشعر وهي حـدثة السن لم تتجـاوز العاشـرة من عمرهـا وقد رثت أباها بعدة مقاطيـع وأقامت عليـه المأتم في داره مـع لمة من أخـواتها ونسـاء بني هاشم الـلاتي يقلن الشعر ويحسن نـظمه فكـانت صفيـة فوق ما يقلن فعجبن منها نساء بني هاشم وأكبرنها أترابها من قـريش ومن علونها في السن ؛ وكانت امرأة لا كالنساء قد عرفت بالبسالـة وقـوة الجنان فكـانت تحضر الحروب وتشجـع الـرجـال فكـأنها قـد أعطيت قلب بطل من أبطال بني هاشم لما تحمل من ثبـات وبصيرة وقد حضرت إحـدى حروب النبي ومعهـا جمـاعـة من المهـاجـرات والأنصاريات وهن قـد أشرفن عـلى المعركـة إذ جائهن حسـان بن ثابت وجلس إليهن وقد كان مخلوع القلب كثير الخـوف فجاء أحـد المشركين وقـد رأى ثلمة في السـور فرام التسلق منهـا والدخـول إلى المدينة فلما شاهدته صفية قالت لحسان دونـك الرجـل ونحن نعينك على قتله فامتنع ولأذبهن فأخذت صفية منه السيف وقصدت الرجل فضربته بـالسيف على عـاتقه فـوقع الـرجل إلى الأرض يخور بدمـه فرجعت عنه ولم تثن له بضربـة أخرى فقمن النسـاء يتضاحكن من بسالتها وجبن حسان ، وقد تـزوجت بالعـوام فأولـدت منه الـزبير وكانت تلقي بولدها في كـل معركـة وتشجعه عـلى ذلك ، وصفيـة أخت الحمزة بن عبد المطلب لأبيه وأمـه هالـة ولكن الحمزة أكبـر منها سناً بسنتين أو بثلاث

لأبيه وأمه التي أعطيت قلباً رقيقاً حساساً وعينين مهراقتين للدموع ، وقد نظمت فأجادت النظم في هذه المصيبة ، (وهذا مسيلك يا أدمع) فاسمع ما تقول :

اسائلة أصحاب أحد مخافة
بنات أبي من أعجم وخبير
فقال الخبير أن حمزة قد ثوى
وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة
إلى جنبه يحيي بها وسرور
فذلك ما كنا نرجي ونرتجى
لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا
بكاءاً وحزناً محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مدرهاً
يذود عن الإسلام كل كفور
فياليت شلوى عند ذاك واعظمي
لدى أضبع تعتادني ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتي
جزى الله خيراً من أخ ونصير

هذه براكين وعواطف تتفجر انفجاراً عالياً مصوتة بالحزن

والعويل من جراء فقيد عزيز وسيد من سادات قريش ، وقائد من قواد محمد .

وهذه أصوات تتقاذفها الأجواء وتحتفظ بها الأعوام تتعالى من إخوان صدق عرفوا لحمزة فضله واحتفظوا بمكانته منهم ومحله فيهم فبكوه وأطالوا بكاه حتى تفجرت ينابيع عيونهم بينابيع الشعر ونثرت أجفانهم لولؤها فالتقطته عواطفهم ونظمته بأسلاك نورية يتعزى بها الدهر مهما تعاقب الليل والنهار وكر الملوان .

نعم إن هذه الصرخات العالية والإنفجارات المتتابعة التي ظل دويها سائراً في أجواء هذا العالم وأرجاء هذه الكرة ستبقى مستمرة بعد قرون متتابعة وأعوام متأخرة تتناقلها بطون الكتب وترويها شفاه المحدثين متأثرين بها .

ها قد انتهى رثاء إخوان حمزة ولم يبق لدينا إلا من تعرض لرثائه ومدحه في الزمن المتأخر الذي بعد زمن سيد الشهداء ولا يسعنا أن نذكر جميع ما رثي به فإن ذلك مما يثقل علينا ولكننا نكتفي بأن ننقل لك هنا منظومة للعلامة الكبير الشيخ محمد حسين(١) الكبني لرقتها وسلاسة ألفاظها ونذكر رثاء بعض الأخوان الذين تفضلوا علينا فقدموا لنا أنموذجاً من عواطفهم

---

(١) العلامة الشيخ محمد حسين الكبني أحد أعلام النجف الذين انتهت إليهم دورة العلم في البحث والتدريس وقد امتاز بدراسة الأصول

وإليك ما قال الشيخ الكبني :

إن غـاظـك الـدهـر الحـرب
فـلذ بـحـمـزة بـن عـبـد المـطلب
فـهـو سـليـل الـسـادة الا كـارم
مـن دوحـة الـعـليـاء والمـكـارم
مـن دوحـة الـنـبـوة الـغـراء
مـن جـنـة الـصـفـاة والأسـماء
إلـيـه تـنـتـهـي مـكـارم الأولى
فـهـو ربيـب المجـد بـل رب الـعـلى
هـو الـعـزيـز مـا أعـز جـاره
يجـبـر بـالـلطف مـن اسـتـجـاره
وهـو مـثـال الـشـرف الأصـيـلي
وهـيـكـل المـجـد بـلا مـثـيـل
بـل هـو في عـين أولى الأبـصـار
إنـسـان عـين المـجـد والـفـخـار
وكـيـف وهـو مـفـخـر الأئـمـة

= والحكمة والفقه وقد ألف بهذه العلوم الثلاثة الكتب المطولة وهو على بعده عن الروح الأدبية وصرف نفسه عنها إذ أهمه طلب العلم عن الأدب فقد كان أديباً كبيراً وشاعراً فطحلاً وقد قصر أدبه في مدح أهل البيت وذكرهم الطيب ورثاهم وما سمع له شعر لغير هذه الفئة من البشر الصحيح وقد توفي سنة ١٣٦١

سيد أعمام نبي الرحمة
وهو له أخ من الرضاعة
نال به القوة والشجاعة
بل مكرمات خاتم النبوة
تراثه من طرف الأخوة
آيات فضله المبين محكمة
بينة في الصحف المكرمة
ووجهه مصحف آيات العلى
يغنيك عن سر دقيقات العلى
طلعته تشرق بالشهامة
غرته تبرق بالكرامة
منطقه ناطقة الفصاحة
وكفه كالغيث في السماحة
وقلبه مشكاة نور المعرفة
معرفة المبدأ ذاتاً وصفة
جوامع الحكمة في لطيفته

مكارم الأخلاق في صحيفته
والعز والآباء والحمية
احدى معالي نفسه الأبية
وهو ملاذ أهل بيت الرحمة
والغوث في الشدائد الملمة

وفارس الإسلام في حروبها
ومفزع الأيام في خطوبها
مفترس الذوآب والأسود
وليث غاب الغيب والشهود
بل أسد الله وجلت قدرته
تقضي على كل كمي صولته
تفر منه الأسد كالثعالب
قرت به عيون آل غالب
ترعد من صولته الضراغمة
وكيف وهو ضيغم الضياغمة
بل فيه من مهابة الرسول
ما كان أن يذهب بالعقول
بل هو سيف الله في هام العدى
وليس سيف الله ينبو أبد
وسهمه الصائب في مرماه
فليس يعدوه إلى سواه
له مواقف ببدر واحد
والفضل للساعد منه والعضد

فساعد الدين الحنيف ساعده
واستحكمت بعزمه فوائده
وفت في أعضاد عباد الصنم

بالعضد الأقوى من الطود الأشم
فكم أباد من عتاة الكفرة
وأوقع الكسر على الجبابرة
كم من كتيبة لهم محاها
بحد سيفه متى واقاها
كم راية نكسها بسطوته
كم هامة حطمها بهمته
كم خاض بالتيار في تيارها
وكم أزال الخيل عن قرارها
حتى إذا اشتاق إلى دار البقا
من طعنة الوحشي آنس اللقا[1]
هوى على وجه الثرى قتيلاً
فمثلت هند به تمثيلاً
حتى غدت تلوك منه الكبدا
بل كبد الدين ومهج الهدى
فسميت أكلة الأكباد
والله للظالم بالمرصاد
فهل تراها أخذت بثأرها
بل ذهبت بعارها ونارها

---

(١) هكذا جاء في الأصل .

فدى بنفسه النبي الأمي
فديته أكرم به من عم
وقد بكاه سيد البرايا
وهو عليه أعظم الرزايا
بل أغيظ المواقف الملمة
موقفه على نبي الرحمة
كيف وقد مثل تمثيلاً بمن
لم يسمح الدهر بمثله ولن
بالمثل الأعلى لكل مكرمة
بالآية العظمى لنور العظمة
بمهجة المجد وبهجة الشرف
بهيكل القدس وصفوة السلف
فلتبكه عيون أملاك السما
فإن عرش المجد قد تهدما
ولتبكه عيون آل فهر
فإنه إنسان عين الدهر
وقد بكاه سيفه الصقيل
حيث أصاب حده الفلول

فهل يضن مسلم بعبرته
على فقيد المصطفى وعترته
ناجت عليه الملة البيضاء

وحنت الشريعة الغراء
ناحت عليه أخته صفية
تندبه بندبة شجية
تذيب قلب الصخر بالبكاء
تكاد تنسى ندبة الخنساء

ومن قصيدة للشاعر الكبير المرحوم شيخ محسن الخضري المتوفى سنة ١٣٠٢ وقد التقطناها من ديوانه .

فهلا استطالت يوم بدر رماحكم
قصرن ويوم الفتح قد كن اقصرا
فيا لشهيد مثلت فيه هندكم
فجاءت بما لا تعرف الناس منكرا

بغيظ رسول الله إذ هي نظمت
قلادتها انفاً وشنفاً وبنصرا
فما مر في الأيام أغيض موقف
كموقفة إذ ساءه ذاك منظرا

سننتم بني صخر ابن حرب قطيعة
لها كاد صم الصرخ أن يتفطرا

فما كان منكم عتبة ووليده
كحمرتهم لا في قراع ولا قرى

محمد تقي بحر العلوم فقال :

شهيد الكرامة

أيـا نـفس فـيضي أسى وانـدبي
ويـا عـين سـحي دمـاً واسـكـبـي
فـقـد فـت مـن هـاشـم زنـدهـا
واردى الحـمـام فـتى يـعـرب
وقـد صـرع المـوت مـن هـاشـم
فـتى مـثـله الـفـضـل لم يـنـجـب
وألـوى بـحـمـزة وهـو الـكـمـي
فـخـر عـن الـسـابـق الأشـهـب
والحـد تحـت ظـلال الـسـيـوف
ولحـد الـسـيـوف شـعـار الأبي
فـيـا هـاشـم حـق أن تـنـدبـيـه
فـفـي مـثـلة أنـت ـ لم تـنـكـب
ويـا غـالـب حـق أن تحـزني
لـصـقـر بـني غـالـب المـنـجـب
بـكـاه الـنـبـي وأي أمـرءٍ
بـكـاه الـنـبـي ولم يـنـدب
لـقـد بـذل الجـهـد دون الهـدي
حـفـاظـاً عـلى شـرعـة الـطـيـب

وآوى اليتامى فأنساهم
حنان الرؤوم وعطف الأب
وحامي النبي فتى مخلصاً
ودان بما جاء فيه النبي
مناقبه ليس تحصى علا
وزهر الكواكب لم تحسب
أعم النبي فدتك النفوس
تصول بصارمك الملهب
تشب به للوغى جذوة
بغير المهند لم تشبب
ويسطع كالشمس لكنه
بغير الجماجم لم يغرب

وممّا نعرض إلى ذكره مستعرضاً قتله دعبل الخزاعي فقد عد الشهداء من أهل البيت وعد حمزة من بينهم إذ قال في تائيته الشهيرة .

ديار علي والحسين وجعفر
وحمزة والعباس ذي الثفنات

وممن ذكر الحمزة الشيخ صالح[1] الكواز الحلي وقد قارن

(١) قد اكتفينا عن ترجمته في هذا الكتاب حيث قد استوفى ذلك عميد جمعية الرابطة الشيخ محمد علي اليعقوبي في كتابه البابليات

بين أحد وواقعة الطف فقال :

لـــو أن رســـول الله أرســـل نـــظرة
لـــردت إلى إنـــسـان عـــين مـــورق
وهـــان عـــليـــه يـــوم حمـــزة عـــمـــه
بـــيـــوم حســـين وهـــو أعـــظم مـــا لـقى
ونـــال شـــجـــا مـــن زيـــنـــب لم يـــنـله مـــن
صـفـيـــة إذ جـــاءت بـــدمـــع مـــرقـــرق

البكاء الصامت

قد قرأت البكاء الذي بكته أصدقاء حمزة وأحبابه في الحقل الأول ؟ فهل انعقد مأتم آخر قبيل هذا المأتم في دور بني هاشم في أم القرى ؟ وهل أقيم لـه حفل تـأبيني يبكونـه فيه كـما بكاه أهل يثرب ؟ وهل كانت هناك مبارات شعرية كما كان ذلك في يثرب مدينة الرسول

نعم كـان هنـاك حفـل صـامت في دور بني هـاشم . قـد حبس عيونه عن المسيل وخنق أصواته عن الصراخ ، بـل راح ينفث أنفـاسه الحـارة في الفضاء ولا يـدع تلك القلوب المكلومة أن تنفجـر خـوفـاً من تلك القـوة الغـاشمـة والسلطة والسـطوة العمياء

بقيت هذه الفئة القليلة الباقية في عاصمة هاشم ؛ وإمارة عبـد المطلب تبكي البكـاء الصامت وتنشـج النشيج الخفي ؛ تنـدب عميدهـا الحمزة وعبيـدة بن الحارث وإخـوانهم الـذين وزعت أشـلاءهم سيوف قـريش ، ونهبت لحـومهم رمـاح بني

أمية ومثلت بهم نساء بني مخزوم وسفهاء بني أمية .

فيا لهذا البكاء الصامت والنشيج المخنوق من لوعة وزفير فانه أشد حرارة وأورى القلوب من ذلك الصراخ الذي ملىء أرجاء يثرب .

هناك لقد استنزفن الهاشميات بمعونة نساء يثرب دموع العيون الهاطلة ونفثن السعير المتلهب عن قلوبهم . فكان لهن بذلك بعض الراحة والإستقرار ولكن بنات عبد المطلب اللواتي كن في إمارة أبيهن كبسن تلك النار الملتهبة والزفرات الحارة ؛ والدموع الغزار في قلوبهن ؛ وآماقهن ؛ وهن يشاهدن هنداً وأترابها وقد مسن فرحاً ؛ ويكدن أن يطرن مما استولى عليهن من السرور الذي نلنه بقتل حمزة وتمثيلهن به

فتفزع تلك النساء السجينات في عاصمة جدهن ويذبن حسرات وألماً حينا ينظرن هذه الشماتة ؛ ويشاهدن هذه الأفراح والزينة التي تزينت بها هند وصويحباتها ؛ فينكفئن راجعات إلى دورهن يصعدن الحسرات ويطلقن لنواظرهن الدمع السارب الحار ؛ ولكنهن يرسلن أبصارهن في أجواء مكة ورحابها ، فيبصرن أندية قريش مكللة بالفرح والبشر وقد

رفعت أعلام النصر والظفر مرفرفة بالشماتة يداعبها نسيم الفتح وتحركها نشوة إدراك الثأر بحمزة وإخوانه الذين فتحوا عليهم أبواب الخزي والفضيحة من قبل ، ويلتفتن فلا يجدن

تلك الأعلام الأول التي رفعت على رؤوسهم بالذلة والهوان في يوم بدر الذي مليء قلوبهم حزناً ورعباً .

في يوم بدر قد حبست نساء قريش ونزال أم القرى الدموع والزفرات في مآقيها وصدورها خوفاً من شماتة هذه النساء اللاتي يحبسن دموعهن وزفراتهن هذا اليوم . وإن هذه المناظر التي تشاهدها لا من وراء حجاب جلبت الخطب على عقائل بني هاشم ؛ وبنات عبد المطلب من فقد أسدهن الهصور ؛ وعزيزهن الذي عقدن عليه الأماني والآمال بعد أبي طالب .

ويشاهدن هنداً وقد ملأت الجو بالطيب واسكبت عياب المسك على أثوابها ، وأثواب نساء قومها ، مائسة راقصة بين أترابها فرحة بأخذ الثأر من اصحاب محمد مغنية بأناشيد الشماتة والإزدراء ؛ والنسوة محيطة بها يضربن على طبولهن وأوتارهن بأنغام ترجيعها وغناها الشماتة والسباب

ولما ينقضي دور الرقص وينتهي دور البهجة ، تخرج هند ثقيلة الخطو مما خالطها من التيه والإعجاب ، ومن أخذ الثأر ؛ فتؤم أندية قريش ، ولكنها تحول طريقها وتحيد عنه متجهة إلى دور بني هاشم ، لتفجعهم وتزيد ما بهم من ثكل كما فجعوهم من قبل في أبيها وعمها وأخيها وفي فلذة كبدها حنظلة قائلة :

رجعت وفي نفسي بلابل جمة

وقــد فـاتني بعض الــذي كــان مــطلبي
من أصحــاب بـدر من قــريش وغيـرهم
بـني هــاشـم مـنهـم ومـن أهــل يـثــرب
ولـكـنــني قـــد نـلت شـيـئـاً ولم يـكــن
كــما كنت أرجــو في مسيــري ومــركـبي

تثير هذه الأغنية التي ترددها هند بنت عتبة الآما والاما تحز في قلوب نسـاء بني هاشم وتضـطرم النار في صـدورهن فيحرق لهبها إحشاءهن وقلوبهن ولم يستطعن الكلام معها لسببين .

١ ـ لانحطاطها وضعتها ؛ وعظمهن ويـأبين أن يقـابلنها ويترفعن من الكلام معها إذ تمسى لهن نداً مزاحماً وهن يستكبرن ذلك وذلك عليهن أشد وخزاً من فقدهن إخوانهن واحباتهن

٢ ـ إن العظمة الكاذبة التي تحلت بها هند والتيـه المستجد أوجب لها ذلك وعصفت في قلبها نشوة الجهل ؛ وان نساء بني هـاشم قـد سلبت تلك القـوة عنهن وأصبحن في زوايـا دورهن بعدما كن القويات العزيزات في دورهن وأبطالهن الذين ذهبـوا عن هذه الحياة الفانية إلى النعيم الدائم والعيش الرغيد

الحرب العاطفية

تنتهي الحـرب بالسيف والـرمح والنبـل مـا بـين الجيشـين بعدما فقد جيش محمد (ص) قائده المجـاهد ورجـع جيش أبي سفيان مردداً أنشودة الظفـر بين بـطاح مكة ، وشعـابها ، حاسباً أنـه قد فت عضـد النبي محمد (ص) وشتت جمعـه بفقد هذا القـائد العـظيم والأسد المغـوار فتى عبد المـطلب ، وإن ذلـك الجيش لا يمكن أن يستعيد قـواه ولن يلم شتاتـه فقد خسر الحـرب وبعد عنـه النصر إلى آخر الـزمن ؛ ومـا هي إلا أيام وليال قصار فيوافيهم بعـدها نبـأ تفرق أهـل يثرب عنـه ، وإنخـزال المهاجـرين منه ويبقى وحيـداً بنفسه تتقـاذفه الأوديـة وتطارده المهامة والقفار ؛ فأما أن يعود إلى مكة طائعاً قـد ألقى نفسه بأيديهم نادماً على ما فرط من تشتيت قومه وقتـل زعمائهم وفشل دعوته وخسرانـه الحرب بعـدم أحرز النصر وهنـاك ترى رأيها به قريش وأحلافها

كـل هذا كـان اعتقاد قـريش وزعمائهـا وهذا حـديثهـا في

نواديها يتصيدون تحقيق أمنياتهم وإصابة آرائهم وظنونهم ؛ وما حسبوا غير ذلك وما ظنوا سواه فقد خسروا الظن وبعدوا عن الصواب ، وها هو ذا جيش محمد يعود إلى حماسه ويسترجع قواه ويتزايد عدده ؛ وتقف شعراء الجيش يعزون النبي بعمه الفقيد ويعددون ما له من مآثر خالدة ، ونعم قد أسدى بها عليهم ؛ ويشكرون أكفه الندية التي قد أرسلت شابيبها فأغدقهم فيضها وطوقهم إحسانها .

وها هم أولئك يذكرون حمزة ويبكون عليه ويندون بأعدائه اللئام الذين مثلوا به ويتوعدونهم لأن أظفرهم الله بهم ليمثلون بهم كما مثلوا بسيدهم وقائدهم ولكن سيدهم ونبيهم ينهاهم عن ذلك ؛ ويوصيهم باللين والإحسان ولا يحب لهم أن يجازوا بالمثل فينعدم الفرق ويستوى الجيشان .

تصلهم أنباء الحفل الكريم الذي ابن به سيد قريش وقائد محمد الحمزة بن عبد المطلب فتسود وجوه أهالي مكة وتتقلب صور منافقي قريش الذين موهو على بسطاء مكة هذا الزمن مدعين أن سيبقى محمد وحده تطارده أبناء الأوس والخزرج وتتقاذفه الوديان وكيف وقد ازداد حبه في ضمائرهم وازدادوا حباً وتفانياً دونه .

فانقطعت آمال قريش من تفرق جيش محمد وتخاذله ورأوا أن محمداً (ص) قد عز وعظم في نفوسهم ، وقد كبر شأنه

فيهم وسمت منزلته ما بينهم ، وقد فضحهم شعراؤه النادبون قائده وإخوانه الذين صرعوا حوله وانهم ذهبوا وملء ابرادهم كرماً وطيباً فلم يسع أذناب قريش الذين تزعموا عليها إلا أن يجمعوا المنافقين من الشعراء ويكيلوا لهم الأموال ويكثروا عليهم بالنعم طالبين منهم أن يهجوا محمداً وأن يقابلوا هذا الإطراء من هذه الفئة التي ازعجت أذن الدهر وروعت أبا سفيان ؛ فيقف شعراء قريش معربين عن عواطف مستأجره وأفكار مستعمرة لمآرب خاصة عند هند بنت عتبة فليصقوا بأولئك السادة الكرام الذين ذهبوا ضحية النسك والتقوى ، وضحية التوحيد بالله والإيمان برسوله بسيوف الجهل والعدوان كل عيب شائن ومكروه وهم براء منه .

فيتقدم ابن الزبعري وضرار وأضرابهما يعصرون عواطفهم وينحتون من أفكارهم الافك والبهتان فيظهرونه للسذج الرعاع من الناس بقالب الفخر والتية على محمد وجيشه ؛ وانهم أدركوا يوم بدر وطلبوا بثأر عتبة والسراة من أصحاب القليب وهاك أسمع شاعرهم عبد الله مندفعاً يهجو المسلمين ويظهر الشماتة بمحمد وجنده فيقول :

قتلنا ابن جحش فاغتبطنا بقتله
وحمزة في فرسانه وابن قوقل
وافلتنا منهم رجال فاسرعوا
فليتهم عاجوا ولم نتعجل

أقاموا لنا حتى تقض سيوفنا
سراتهم وكلنا غير عزل
وحتى يكون القتل فينا وفيهم
ويلقوا صباحاً شره ليس ينجلي

ثم يندفع مرة أخرى بدافع الشقاء النفسي فيرثي قتلى أحد من المشركين ويذكر شيوخ بدر مقلداً بذلك المسلمين إذ رثوا قوادهم وجنودهم الذين حاموا وجاهدوا عن دينهم الجديد وقد ذكروهم بواقعة بدر وقد أيدوا بالنصر والظفر ؛ وكيف قد رجعت سادات قريش بالهزيمة والخسران العظيم فينشأ وينشد قومه من قريش :

يا غراب البين اسمعت فقل
إنما تنطق شيئاً قد فعل
إن للخير وللشر مدى
وكلا ذلك وجه وقبل
والعطيات خساس بينهم
وسواء قبر مثر ومقل
كل عيش ونعيم زائل
وبنات الدهر يلعبن بكل
أبلغا حسان عني أية
فقريض الشعر يشفي ذا العلل

كم ترى بالجب من جمجمة
واكف قد أثرت ورحل
وسرابيل حسان سريت
من كماة أهلكوا في المنتزل
كم قتلنا من كريم سيد
ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم بارع
غير ملتاث لدى وقع الأسل
فسل (المهراس[1] عن ساكنه
بين أقحاف وهام وبطل
ليت أشياخي ببدر حضروا
جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها
واستحر القتل في عبد الأشل[2]
حين خفوا عند ذاكم رقصاً
رقص الحنان يعلو في الجبل
فقتلنا الضعف من أشرافهم

---

(١) المهراس ماء بجبل أحد ويشير بقوله بطل إلى حمزة ابن عبد المطلب

(٢) البرك الصدر واستحر اشتد .

وعـدلـنـا مـيـل بـدر فـاعـتـدل

لا ألـوم الـنـفـس إلا إنـنـا
لـو كـررنـا لـفـعـلـنـا المـفـتـعـل

فـسـيـوف الهـنـد تـعـلو هـامـهـم
عـللاً تـعـلوهـم بـعـد نهل

تتحدث أندية قريش بأبيات ابن الزبعري ، ويدوي بها فتيانهم وتأخدها المغنون والحداة يترنمون بها ظانين أنهم قد جعلوا على محمد وجيشة الخزاية والعار وانهم قد نددوا ببطله الشهيد أسد الله ورسوله ؛ ولكنهم مدحوا واطنبوا في المديح والثناء عليه من حيث يدرون ولا يدرون

أما تراه وقد استرسل في أبياته ذاكراً حمزة ؛ وصحبه الذين وفدوا على الخالق الكريم باستشهادهم وفنائهم في حبه ومعرفته أما سمعته يردد قوله :

كـم قـتـلـنـا مـن كـريـم سـيـد
مـاجـد الجـديـن مـقـدام بـطل

صـادق الـنـجـدة قـرم بـارع
غـيـر مـلتـاث لـدى وقـع الأسـل

فأي مدح وإطراء أكثر من هذا وأي ثناء أعظم من ثناء ابن الزبعري وأي فضيحة وخزاية أكبر من هذه الخزاية والإعتراف بالجريمة التي فضحوا بها أنفسهم باعترافهم أنهم قتلوا ساداتهم

وأشرافهم على غير جرم أو ذنب اقترفوه .

ولم ينكر ابن الزبعري شرف حمزة وعزه ومجده وفخره وآبائه الصيد الأكارم ونفسه الشديدة التي لا تفر ولا تنهزم إذا نشبت الحرب وشرعت الرماح هذا مجد حمزة وفخره ، وهذا سؤدده ونسبه وأين نسب من افتخر بقتله ومجده وعلاه .

لقد خسرت صفقة قريش . وعدموا التنديد بأبطال النبي وصحبه وفخرهم عليهم بقتل إخوانهم وأبناء عمومتهم . وما القتل إلا شعار الكرام وخيمهم إذا اشتبكت الهيجاء وثار الفقع . وأسود لون النهار .

أرسل ابن الزبعري أبياته إلى شاعر النبي حسان بن ثابت ليقرأها وليطلع على عواطفه الثائرة أمام جمعه وصحبه وليرى شيئاً من شماتة قريش وغلهم الذي اعتلج في صدورهم من يوم بدر حتى يوم أحد .

ولم يكن بين ابن الزبعري وبين فتى عبد المطلب إلا بادرة إحسان ومعروف من الحمزة طوق بها جيد ابن الزبعري فكيف يكون جزاء ابن الزبعري لفتى عبد المطلب دون أن يهجوه وينزل الشماتة به حين قتله

فقد روي ابن أبي الحديد في ترجمة الزبير بن عبد المطلب قال فكان من أشراف قريش ووجوهها وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزبعري بني قصي

فأرسلت بنو قصي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم فقال لهم أن قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم فأرسلوني إليكم في هذا السفيه الذي هجاهم في غير ذنب أجرموا إليه فإن كان ما صنع عن رأيكم فبئس الرأي رأيكم وإن كان عن غير رأيكم فأرفعوه إليهم فقال القوم نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا قال فاسلموه إليهم فقال بعض بني سهم أن فعلتم فعلنا على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا فقال عتبة ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف وقد عرفت انه سيفرغ لهذا الأمر فيقول ولم أكن أجعل الزبير خطراً لابن الزبعري فقال قائل منهم أيها القوم ادفعوه إليهم فلعمري إن لكم مثل الذي عليكم فكثر في ذلك الكلام واللفظ فلما رأى العاص بن وائل ذلك دعا برمة فأوثق بها عبد الله بن الزبعري ودفعه إلى عتبة بن ربيعة فأقبل به مربوطاً حتى أتى به قومه فأطلقه الحمزة بن عبد المطلب وكساه فأغرى ابن الزبعري أناس من قريش بقومه بني سهم وقالوا له أهجهم كما أسلموك

هكذا كان جزاء ابن الزبعري لسيده الذي من عليه وأطلقه من أصفاد القيود وها هو ذا قد أرسلها إلى شاعر مثله

قد مدح الحمزة وذكر إحسانه وحسناته ولم يك جيده مطوقاً

من قبله يجميل ومنه كما طوق عنق ابن الزبعري

وصلت أبيات ابن الزبعري إلى حسان فقرأ نفسية منحطة منغمسة في هوة الرذائل والموبقات فتحدثه نفسه بالجواب ، وتردده بالاعراض والصفح عنه لانحطاط قدره وضعف نفسه التي إنساقت إلى تيار الجهل فاعمته عن سبل الخير والنجاح

ولكنه فضل أن يتنازل ويجيب ابن الزبعري على أبياته يذكره ببدر وأن الحرب لك وعليك فلا تفخر علينا بجمعك وجيشك ، فقد سدت جيوشك وجه الفضاء ، وملأت فيافي البر الأقفر وقد صبحناك في يوم بدر بعدد لا ينوف على الثلثمائة ويوم أحد بعدد لا يكثر على السبعمائة فارس عندما هزموا جمعك وجندك وولوك الدبر لولا الإرادة وتنفيذ القدر ؛ وهذه قصيدة حسان يرفعها لابن الزبعري بعدما يتلوها في يثرب

ذهبت بابن الزبعري وقعة
كان منا الفضل لو فيها عدل(١)
ولقد نلتم ونلنا منكم
وكذاك الحرب أحياناً دول
نضع الأسياف في أكتافكم
حيث نهوى عللاً بعد نهل

---

(١) انظر ديوان حسان حرف اللام فقد أخذناها عن ديوانه الذي جمعه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي وطبعه في مصر

نخرج الأضياح من استاهكم
لسلاح النيب يأكلن الوصل[٢]

إذ تولون على أعقابكم
هرباً في الشعب أشباه الرسل

إن شددنا شدة صادقة
فأجأناكم إلى سفح الجبل[٣]

بخناطيل كجنان الملا
من يلاقوه من الناس يهل[٤]

ضاق عنا الشعب إذ نجرعه
وملأنا الفرط منه والرجل

برجال لستم أمثالها
أيدوا جبريل نصراً فنزل

---

(٢) الأضياح : اللبن ؛ والعصل : نبت حامض تأكله الإبل فيسبب جفافاً في المعدة ولا يخرج البراز منها بسهولة

(٣) فأجأناكم الجأناكم

(٤) الخناطيل : الجماعات واصله الجراد ، ويهل : يفزع ويخاف وفي البيت ثلاث روايات

أ - رواية كجنان وهم الجن الصورة الموهومة التي تنحتها المخيلة من الفزع والرعب عندما تضعف الأعصاب

ب - تروي كأشداف والأشداف الأشخاص

ج - تروي كامذاق وهم الخيلط من الناس

وغلونا يوم بدر بالتقى
طاعة الله وتصديق الرسل
وقتلنا كل رأس منهم
وقتلنا كل جحجاح رفل[1]
وتركنا في قريش عورة
يوم بدر وأحاديث المثل[2]
ورسول الله حقاً شاهد
يوم بدر والتنابيل الهبل[3]
في قريش من جموع جمعوا
مثلما يجمع في الخصب الهمل[4]
نحن لا أمثالكم ولد استها
نحضر اليأس إذا اليأس نزل[5]

وفي هذه القصيدة اختلاف كثير بين صاحب السيرة لابن هشام وديوان حسان فقد روى ابن هشام في بعض أبياتها خلاف ما يرويه جامع الديوان ، وقد أضاف على ما ذكره

---

(١) الجحجاح القرم الشديد ؛ والرفل المتبختر في مشيه والذي يسحب ذيله تبختراً وتجبراً

(٢) العورة : العيب والخلل الذي يخاف منه ؛ والمثل : العبرة

(٣) التنابيل القصار اللئام ، والهبل : الثكل أو كثير اللحم

(٤) الهمل الإبل التي لا راعي لها

(٥) حضر : المنع ، وولداستها أقصى : كلمة في الذم والهجاء

صاحب السيرة بيتين لم يذكرهما ولم يتعرض لهما ، وانا قد رسمنا هذه الأبيات طبقاً لما في السيرة لا مندين بالأستاذ البرقوقي ولكن صاحب السيرة أقدم منه في العصر والزمان فعساه أن يكون بتقدم عصره وقربه إلى عصر صاحب الديوان وبعد عصر الأستاذ عنه أكثر من عصر ابن هشام وأطول زمناً ولم يتحقق لنا الواقع من تلك الروايتين على أن صاحب ناسخ التواريخ (مستوفي) قد وافق الشيخ ابن هشام في روايته ولعله أخذها عنه

لقد أرسل حسان هذه القصيدة إلى ابن الزبعري وشفعها بوصية عبر بها عن نفسه وعن إخوانه الشعراء الذين اتصلوا بالنبي وأسلموا على يده فقر بهم له لعلمه باستعدادهم لمنازلتهم ؛ ومساجلتهم والصاق العار بهم

تصل قصيدة حسان إلى عبد الله بن الزبعري ويقرأها على هام قريش وهم مصغون له مستمعون لما يقول ولكنه ينتفض عند الفراغ منها فيستنجد بشعرائه ويحفزهم للوثوب عليهم وإلصاق التهم بالنفر البيض الصباح ؛ فيجيبونه إلى ذلك متحمسين بدعوة ابن الزبعري لهم واستصراخه بهم فتسمع هند ابنة عتبة بهذه القصيدة فتهب من حينها نحو هبيرة ابن أبي لهم المخزومي ؛ وضرار بن الخطاب تستنجد بهما لصاحبهم عبد الله فينبري هبيرة امتثالاً وطاعة لأوامر هند فأنشأ يقول

مـــا بـــال هــم عــمــيــد بــات يــطرقــني
بــالــود من هنــد أن تعــدوا عــواديهــا
بــاتــت تــعــاتـبـني هــنـــد وتــعــذلــني
والحــرب قـــد شـغلت عـني مـــوالـيـهـــا
مـهــلاً فــلا تعــذلـيـني أن مـن خـلـقـي
مـــا قـــد علمت ومـــا أن لست أخفيـهـــا
مـســاعـف لـبـني كـــعـب بمـــا كـــلفـــوا
حمـــال عـــبء وأثـقـــال أعـــانـــيـــهـــا[1]
وقـــد حمـلت ســـلاحي فـــوق مـشـتـــرف
ســـاط سـبـــوح إذا تجـــري تـبـــاريهـــا[2]
كـــأنـــه إن جـــرى عـــير بـــفـــد فـــدة
مـكـــدم لاحـق بـــالـــعـــون يحـمـيـهـــا
مـــن آل أعـــوج يـــرتـــاح الـــنــدى لـــه
كـــجـــذع شعـــراء مـسـتـعـــل مـــراقـيـهـــا
أعـــددتـــه ورفـــاق الحـــد مـــنـــتـــخـــلا
ومـــا رنـــا لخـــطوب قـــد ألاقـــيـــهـــا
هـــذا وبـيضـــاء مـثـــل النهـى محـكـمـــة
نـيـــطت عـــلي فـــما تـبـــدو مـــســـاويهـــا

(١) المساعف : المطيع الجاد في الإطاعة
(٢) الساط : البعيد الخطو ؛ والمشترف : العـالي الذين ينظرون إليه الناس ويتطلعون نحوه

وهي قصيدة طويلة وقد تركنا ذكرها لما فيها من المساس بكرامة الصحابة الذين استشهدوا في يوم أحد وقد أجابه عليها حسان بن ثابت في أبيات لا بأس بهن إلا إننا أعرضنا عن ذكرهن هنا لعدم المناسبة في هذا الباب ولعدم ذكر القائد الفاتح الحمزة بن عبد المطلب وإن كان الواقع الذي حفز القوم إلى استنهاض العواطف وانبعاثها في هذه المساجلات الأدبية ما كان إلا قتل حمزة ورثاء المسلمين له وبواكي النساء عليه ، إلا إنا قد أعرضنا عن ذكر هذه المقطوعة وعن غيرها من باقي الشعر معتقدين ان ما تركناه لم يكن في حمزة حتى يدخل بحثنا وإنما هو شعر عام قد قيل في يوم أحد للفخر به وذكر النبي فيه ولو أردنا أن نجمع ما قيل في يوم أحد من شعر لكان كتاباً مستقلاً وما كان خاصاً في سيدنا الحمزة فقد ذكرناه وحده

وهذا ضرار بن الخطاب الفهري يرد على كعب بن مالك ويتوعده أن يعيد البكاء على نفسه ، وعلى إخوانه الذين صرعوا في أحد وفي الحروب الآتية فيقول :

أيجزع كعب لاشياعه
ويبكي على الزمن الأعوج
عجيج المذكي رأى ألفه
تروح في صادر محنج[1]

(١) المحنج : المغيب عن وجهه

فراح الروايا وغادرنه
يعجعج قسراً ولم يحدج[٢]
فقولا لكعب يثني البكاء
وللنيء من لحمه ينضج
لمصرع إخوانه في مكر
من الخيل ذي قسطل مرهج
فيا ليت عمراً وأشياعه
وعتبة في جمعنا السورج[٣]
فيشفوا النفوس بأوتارها
بقتلى أصيبت من الخزرج
وقتلى من الأوس في معرك
أصيبوا جميعاً بذي الأضوج
ومقتل حمزة تحت اللواء
بمطرد مارن مخلج[٤]
وحيث انثني مصعب ثاوياً
بضربة ذي هبة سلجج[٥]

---

(٢) والمعجعج : المبالغ في الصياح من الخيل المسمنة

(٣) السورج : المتوقد .

(٤) المخلج الذي يطعن بسرعة

(٥) السلجج : المرهف الحاد القاطع

بـأحـد وأسـيـافـنـا فـيـهـم
تـلـهـب كـالـلـهـب الـمـوهـج
غـداة لـقـيـنـاكـم في الحـديـد
كـأسـد الـبـراح فـلـم تـعـنـج[٦]
بـكـل مجـلحـة[٧] كـالـعـقـاب
وأجـرد ذي مـيـعـة مـسـرج
فـدسـنـاهـم ثـم حـين انـثـنـوا
سـوى زاهـق الـنـفـس أو محـرج

ثم يعقب ضرار بن الخطاب عبد الله بن الزبعري فيبكي قتلاه ويندد بالمسلمين ويذكر قتلاه يوم أحد مفتخراً عليهم بشعره .

ألا ذرفـت مـن مـقـلـتـيـك دمـوع
وقـد بـان من حبـل الـشـبـاب قـطـوع
وشط بمـن تهـوي المـزار وفـرقـت
نـوى الحـي دار بـالحـبـيـب فـجـوع
ولـيـس لمـا ولى عـلى ذي حـرارة
وإن طـال تـذارف الـدمـوع رجـوع

---

(٦) البراح : الأرض الواسعة التي لا شجر فيها ولا نماء والبراح الغضب الشديد ، والعنج : الجذب .

(٧) المجلحة : الناقة السريعة الخطو ولسرعة سيرها شبهها بالعقاب .

فـذر ذا ولـكـن هـل أتى أم مـالـك
أحـاديـث قـومي والحـديـث يـشـيـع
ومجـنـبـنـا جـردا إلى أهـل يـثـرب
عـنـاجـيـج منـهـا متـلذ ونـزيـع[1]
عـشـيـة سـرنـا في لهـام يـقـودنـا
ضـرور الأعـادي لـلصـديـق نـفـوع
نـشـد عـلـيـنـا كـل زغـف كـأنها
غـديـر بضـوح الـواديـين نقيـع[2]
فـلما رأونـا خـالـطتـهـم مـهـابـه
وعـايـنـهـم أمـر هـنـاك فـظيـع
وودوا لـو أن الأرض ينشق ظـهـرهـا
بهـم وصـبـور الـقـوم ثـم جـزوع
وقـد عـريـت بيض كـأن وميـضـهـا
حـريـق تـرقـى في الابـاء سـريـع[3]
فـغـادرن قـتـلى الأوس عـاصـبـة بهـم
ضـيـاء وطـير يـعـتـفـين وقـوع
وجمـع بـني الـنـجـار في كـل تـعـلة

---

(١) النزيع : الغريب ، والمتلذ : الذي ولد عندك ، والعناجيج : الطوال الحسان

(٢) الزعف : الدرع اللينة ؛ والضوج جانب الوادي كما مر ذكره

(٣) الاباء : الأجمة الملتفة الأغصان والمعنى ظاهر .

بـأبـدانهم مـن وقـعـن بـخـيـع[٤]
ولـولا عـلو الشـعـب غـادرن أحمـدا
ولـكـن عـلا والـسـمـهـري شـروع
كـما غـادرت في الـكـر حمـزة ثـاويـاً
وفي صـدر مـاضي الشبـاة وقـيـع[٥]
ونـعـمـان قـد غـادرن تحـت لـوائـه
عـلى لحـمـه طـير يحـقـن وقـوع
بـأحـد وأرمـاح الـكـمـاة يـرونهم
كـما غـال أشـطان الـدلاء نـزوع[٦]

ولم تـزل هـذه المعـركـة القلميـة والثـورة الفكـريـة يتمشى صداها في الجـزيرة العـربية بـين يثرب وبـين أم القري ، حتى أدت إلى صـراع مستمر ونـزاع دائم مرتفعـة فيه أصـوات القوم يتبـارى فيه الكفـر والإيمان عـلى الألواح التحـريريـة ، وأفـواه الرسل وغنـاء الحداة حتى تنـاقلتها أقـلام الكتاب وأودعـوها في بطون أسفارهم الخالدة

---

(٤) النجيـع : وهـو قتـل النفس همـاً وغـمـاً ، والتعلة : الضـرب والطن

(٥) الوقيع : المحدود

(٦) النزوع : وهو الجذب فيقال نزع الدلو من البئر أي جذبها والنـزوع مصدر نزع

فما زالت تثور بين الحين والآخر وقد اجتمع الحفل واكتض المسجدان بالناس كل يسمع ما يقول شاعره ويصغى لقول خطيبه في هذه المحافل المعقودة والأندية المكتضة كل يدافع عن قومه وإخوانه بقوافيه التي سارت مع الدهر وتمشت مع الأزمان .

كل يذكر فضل قومه ونبلهم ويتأسف على قتلاه ، وذاك مترحم عليهم ويتمنى اللحوق بهم والإجتماع معهم حتى يحظى بما حظي به صحبه الذين استشهدوا من النعيم الدائم والراحة بعد العناء

وهذا يفخر بأصنامه التي نحتها بيمينه معتقداً أنها توصله إلى ربه زلفى وتقر به إلى الخير وتدفع عنه كل شر ؛ وهي لا تملك ذلك لنفسها ؟ فكيف تهبه لغيرها

وذاك يصول بروح الإيمان وحرارته المتغلغلة في أحشائه المنطبعة بنفسه ، فيحامي عنها ؛ ويدعو لها إذ انها هي الشرعة السماوية التي يجب أن تتبع ، ويمحى ما سواها من الشرائع والعقائد

وكلا الفريقين يجتمعان بالبكاء على اخوته الأعزاء الذاهبين ، وعلى السراة من العشيرتين بكاءً مراً إلا أن أحد الفريقين لا يشوب بكاءه الجزع ولا ينتابه ما ينتاب البشر من الذهول والحيرة بل أن بكاءه بكاء فاقد غير غاضب على حلول

الموت وملاقاتهم الحتف تحت ضلال الرماح ؛ وبريق السيوف ، بل عد ذلك شرفاً وشهادة لهم ولكنه أطال البكاء على فراقهم وبكاء الفراق بكاء مؤلم يدع القلوب تسيل بأدنى مناسبة لأنه أشبه شيء ببكاء المحب حبيبه .

وقد تمنى أصحاب محمد ببكائهم البقاء لإخوانهم ليتم هذا الدين الحنيف والدعوة الحقة التي جاهدوا من أجلها ودافعوا عنها وأنها بعد في عنفوان عمرها ؛ وغضارة عودها ، فراح يبكي صحبه وإخوانه الذين أفنوا قسطاً من حياتهم في سوح الوغى ولهوات الحرب ليقوموا هذه الشريعة الفتية التي ترعرعت بسيوف أولئك الكرام الذين ذهبوا للقاء ربهم ، وهم مضرجون بدمائهم ، وأمامهم سيدهم القائد حمزة وقد مثل به أشنع التمثيل فتسيل نفس الشاعر المسلم وتستحيل أبياتاً من الشعر فيثور مندفعاً حينما يتصور الحادث المؤلم والخطب الفادح الذي قامت به هذه العصابة المتمردة والأمة الجاهلة

تثور فيه عاصفة الإيمان ، وتشتد في نفسه زوبعة الأسى ؛ فينبعث منددا بتلك الطائفة الشريرة ، والعصابة الجاهلة التي ارتكبت هذه الجرائم والموبقات من الأعمال الوحشية المنكرة ؛ والأوضاع المستهجنة التي يأباها كل عربي غيور .

ومما يزيد الأمة ، ويدفعه لأذابة روحه ، وإحالتها قريضاً

أنه يوافي بين حين وآخر بقافية قارصة تسير من بلد لمثله تـرددها الركبان وتناقلها القـوافل وتغنى بهـا الفتيان فلم لا ينـدفع ولم لا يذود ولماذا لا يقابلها بتلك القافية بأمضى منها وألذع وأشد لهجة وهو إنسان مثله قد أعطى بياناً مثله أو ينوفه بشـاعريـة تطاوعـه على صوغ المعاني ومضغ الألفاظ .

وها هي ذي هند بنت أثـاثة بن عبـاد بن المطلب تسمـع أبيات هند بنت عتبة التي أولها .

نحن جزيناكم بيوم بدر .

فتثور مندفعة لنزال امرأة مثلها مجيبة لها على أبياتها .

خـزيـت في بـدر وبـعـد بـدر
يـا بـنـت وقـاع عـظيـم الـكـفـر[1]
صـبـحـك الله غـداة الـنـمـر
بـالهـاشـمـيـين الـطوال الـزهـر
بـكـل قـطاع حـسـام يـفـري
حمـزة « لـيـثـي » وعـلي صـقـري
إذ رام شـيـب وأبـوك عـذري
فـخضـبـا مـنـه ضـوامي الـنـحـر[2]
ونذرك السوء فشر نذر

(١) الوقائع : كثير الوقوع في الرذائل والدنايا

(٢) ضواحي النحر : ما ظهر منه .

إن منع النبي النساء من دخول الحرب وركوب صهوات الخيل والطعن وألزمهن أن يقرن في بيوتهن ولا يباشرن الحرب وألزم الرجال بشن الغارات ودخول الحرب إذ قد كتب القتل والقتال على هذه الفصيلة دون الأخرى فما حرم على النساء أن يدخلن المعركة اللسانية التي فيها إظهار الدعوة ودحض الحجة ، وما المانع من أن تدخل هذه الطائفة في مثل هذه المعركة التي توغل فيها رجال قريش ونساؤها ؛ وأدخلوها حومة الحرب الهجائية وكيف لا يدخلن وهن يسمعن أبيات هند بنت عتبة متشفية بحمزة مظهرة الفرح والسرور في قتله تنشد بين جموع قومها

شفيت من حمزة نفسي بأحد
حين بقرت بطنه عن الكبد
إذهب عني ذاك ما كنت أجد
من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحزن تأتيكم بشؤبوب برد
نقدم أقداماً عليكم كالأسد

هذا وأبو سفيان يتحبب لها ويطلب رضاها عنه مترامياً بين نهديها ينشدها شعره وهو يعرض بابن عمه وإخوانه الصيد البهاليل الكرام فيقول

ولو شئت نجتني كميت طمرة

ولم أحمل النعماء لابن شعوب
وما زال مهري مزجر الكلب منهم
لدى غدوة حتى دنت لغروب
أقاتلهم أو ادعي يال غالب
فادفعهم عني بركن صليب
فبكي ولا ترعى مقالة عادل
ولا تسأمي من عبرة ونحيب
أباك وإخواناً له قد تتابعوا
وحق لهم من عبرة بنحيب
وسلى الذي قد كان في النفس انني
قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرماً كريماً ومصعباً
وكان لدى الهيجاء خير هبوب
ولو أنني لم أشف نفسي منهم
لكانت شجا في القلب ذات ندوب
فآبو وقد أودى الجلابيب منهم
بهم خذب من معبط وكئيب[1]
أصابهم من لم يكن لدمائهم
كفاء ولا في خطه بضريب

---

(١) عبطة : نحره ؛ وخذبه : ضربة بالسيف أو قطع اللحم دون العظم أو هو ضرب الرأس

لم يكف أبو سفيان أن أطلق لساقية الريح عند بدء الحرب فهزم مع الذين قد انهزموا حتى عاد إلى عالم الفخر بنفسه امام زوجه هند وقد مدح نفسه أمامها وذكرها بكل شجاعة وإقدام وانه جندل ذلك السيد المطاع أمره المرموق بعين التجلة والإحترام بين أهله والسادات من عشيرته ، ولكن حساناً لم يطق أن يسمع هذه الأبيات إلا وينشيء مثلها على الوزن والقافية فيرسلها إلى أبي سفيان فيقول :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
ولست لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم
نجيباً وقد سميته بنجيب

ألم يقتلوا عمراً وعتبة وابنه وشيبة والحجاج وابن حبيب

غداة دعا العاص علياً فراعه
بضربة عضب بله بخضيب

إلى هنا تنتهي حرب القلم بين الجيشين إذ يفصل بينهما حرب أخرى فيعود القوم مرة ثانية كل قد اندفع بدافع الحب ودافع الغيرة والحرص على كرامة قومه وشرفهم وينهى الضرب والطعن في القول المؤلم الذي طالما جرحوا فيه سيد الشهداء الذي افتخر به علي بن أبي طالب واستنجد يوم أخرج من بيته

ليبايع فصاح (واحمزتاه[1] ولا حمزة لي اليوم ، واجعفراه ولا جعفر لي اليوم) . وكما استغاث به الإمام السجاد علي بن الحسين (ع) حينما أخذ أسيراً إلى الشام فقال (أين مني حمزة ليشاهد الهاشميات وما هن عليه من ذل الأسر) .

وقد هتفت به عقيلة بني هاشم السيدة زينب الكبرى وذلك في مجلس يزيد بن معاوية في الشام وقد ذكرته بسيد الشهداء وما فعلته هند معه بالتمثيل إذ قالت : (ويلك يا يزيد أحسبت أن يوم أحد وما فعلته أمك هند بعمي حمزة قد نسته العرب حتى جئت مجدداً خزيك بيوم الحسين فلو شاهدك أسد الله وأسد رسوله لفعل بك مثل ما فعل بقومك من قبل ؛ ولكن الله لبالمرصاد) .

وقد افتخر جعفر بن أبي طالب بعمه حمزة وذلك أنه قال ولدت في حجر الشرف ورضعت الشرف ورضعت من لبن المكارم وربيت في بيت الفضائل والشهامة » .

وأشار بقوله وربيت في بيت الفضائل والشهامة إلى بيت عمه حمزة فقد روى التاريخ أن النبي (ص) جمع حمزة والعباس وذكر لهم ضعف أبي طالب وما هو فيه من ضيق الحالة وحبب لهم أن يغينوه على ذلك فخف الجميع إلى أبي طالب

---

(١) انظر ابن أبي الحديد

فحدثوه الحديث فقال أبو طالب دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم فاختار النبي علياً والعباس طالباً والحمزة جعفراً .

وافتخر جعفر في هذه التربية وذلك قوله الذي مر عليك .

وقال فيه يوم سمع نعيه وهو في الحبشة (بخ لام ولدتك فقد ولدت سيداً كريماً ، وفارساً مهاباً) .

هذه طائفة يعرف العالم ما لهم من فضل ومحاسن قد افتخروا بسيد شهداء أهل الجنة ، فما يبالي التاريخ أن سمع شماتة طائفة سوء قد عاموا بالجهل وسدروا بكل جريمة وخزاية ولسوف يجزي الله الناس بأعمالهم .

الخاتمة

كان يدور بخلدي أن يصدر كتابي هذا أوسع مما هو فيه في هذا الحين إذ كنت اعتقد أن هذا الباب مفتوح أمام سالكيه ، ولكني لما طرقت حلقة هذا الباب وانفتح ما كان موصوداً عني سلكت الدرب وئيداً لا عنقاً فوجدت السبيل الوعر والدرن الضيق فكدت أن أضيق ذرعاً بالموضوع وأرجع قابعاً بثوب الفشل والخيبة لولا أن تداركني رحمة ربي وتولد فيّ قوة في الإرادة ونشاطاً في الهمة والعزيمة فتدعني أسير بانات وطمأنينة إلى غايتي التي أنشدها وضالتي التي أطلبها ؛ فتضاعف الصبر وقوي الأمل وتناسيت كل عناء وتعب من البحث والتنقيب فهناك علمت أن من صبر ظفر ومن سار رويداً لم يلحقه السأم في جل أعماله شخصية كانت أو تكليفية ؛ فالإناة باب من أبواب الخير ؛ والعجلة باب من أبواب الشر فقد كادت أن تذهب في نفسي على غير سبيل الهداية ومحجة التوفيق

الفهرس